

أضواء على تراثنا

- رحلة مخطوط
- ربان السفينة على معبر الحضارة
- كتر البردى ، ومجموعة فيينا
- مؤتمر المستشرقين الدول

obeikandi.com

رحلة مخطوط بين شرق وغرب

المخطوط الذى أتحدث عنه ، هو نسخة من
مصحف أثرى قديم فى متحف طشقند ، يقال
إنه المخطوط الأصيل لمصحف عثمان رضى الله عنه
ولعل فيما أرويه من قصة رحلته ، ما يوضح
الفكرة عن مصير تراثنا بين أيدينا . وبين
أيدي الأجانب الغرباء .

obeikandi.com

شاهدتُ هذا المخطوط في مأمته بمتحف تاريخ شعوب أوزباكستان ، في طشقند عاصمة جمهوريتها ، عندما سافرت إلى هناك في أكتوبر عام ١٩٥٨ ، عضواً في وفد الجمهورية العربية المتحدة إلى مؤتمر كتاب آسيا وإفريقيا .

ولاجال الحديث في توثيق هذا المخطوط الأثرى الذي يقال هناك إنه المصحف الذي كان «الخليفة عثمان» رضي الله عنه يقرأ فيه عند مقتله ، فلم يُسح لي أن أفحصه فحصى توثيقه ، وإن بدا لي أن خطه أقرب إلى نصوص من الخط الكوفي لأواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني للهجرة . كما أن ورقه — وهو من الكاغد — يضع علامة استفهام أمام ما نعرفه من مخطوطات عصر الخلفاء الراشدين ، التي وصلت إلينا على ورق من البردى أو الرق .

لكن مخطوط طشقند ، يحمل مع ذلك مهابة القدم وجلال السمعة ، منذ اشتهر عنه أنه « مصحف عثمان » . والمسلمون في آسيا السوفييتية ، لا يشكرون في هذا ، وهم يرون على بعض صفحاته آثار يقع يقال إنها من دم عثمان . وأقرب إلى الاحتمال أن تكون أثراً من عرق أو لطخاً من مداد .

والذي يعيننا هنا من أمر هذا المخطوط الأثرى ، أن نتبع مسار رحلته إلى حيث انتهى به المطاف في متحف طشقند ، وأن نقابل مصيره على مصير مخطوطات لمصاحف أخرى يقال كذلك إنها « مصحف عثمان » وقد بقيت في حوزتنا نحن العرب المسلمين .

كما لا مجال للبحث العقيم عن المرحلة المجهولة التي قضها المخطوط في وطنه الشرق الإسلامي ، قبل أن ينتقل إلى سمرقند في العصر المغولي ، حيث يبدأ المعروف من سير رحلته .

فهناك رواية تقول إن « تيمورلنك » هو الذي نقله إلى سمرقند ، فيما نقل من ذخائر تراث الإسلام . وتعتمد هذه الرواية فيما أرى ، على ما كتبه المسلم الروسي

« م . الرمزي »^(١) : عن « ختمة شريفة ، أهديت إلى السلطان بركة - من ملوك التتار المسلمين - يذكر أنها بنحط الخليفة عثمان ، بغلاف أطلس مزركش ، ضمن درج أحمر من الجلد ، على كرسى من أبنوس وعاج مطعم بالفضة » .
ولا يستبعد المؤلف ، أن يكون هذا المصحف هو الذى حملة « تيمورلنك » من مدينة سراى إلى سمرقند .

وهناك رواية أخرى تقول: إن طبيباً من إقليم أوزباكستان عالج أحد السلاطين الترك من مرض عضال ، فلما خيره السلطان فى المكافأة ، اختار " مصحف عثمان " ومنه انتقل إلى شيخ مسجد سمرقند .

ورواية ثالثة تقول: إن السلطان التركى شفى من مرضه ، ببركة ولى الله « حاج أحرار قسطنطينى » ودعواته ، فأهداه هذا المصحف الثمين ، ورحل به حاج أحرار إلى سمرقند ، حيث عُثر عليه فى مدفنه هناك .
ولا تزال هذه المرحلة - من رحلة المخطوط - مجهولة المعالم . فلتتابع بقية المراحل من سمرقند التى يبدأ منها المعروف من خط سيره .

فى سنة ١٨٦٩ . غزت قوات قيصر روسيا إقليم تركستان ، وكان من نتائج الحملة . أن نقلت ذخائر مخطوطاتها إلى « بطرسبورج » وفيها هذا المصحف الأثرى الذى تولى « الجنرال فون كاوفمان » مهمة نقله ، مما يشهد بأن المسألة كان لها ملحظ سياسى وعسكرى ، يتصل بما نعرف من حركة الاستشراق فى مرحلتها الثانية التى وجهتها لخدمة الاستعمار .

وإن كان قائد الحملة « الجنرال فون كاوفمان » قد برر نقل المصحف بأنه « ليست لديه قيمة عند أهله ، بل هو مجرد أثر يخص أمراء بخارى ، وقد ظل بها مئات السنين دون أن يستطيع أحد قراءته أو الانتفاع به » .
وهو تبرير ظاهره حق ، وإن أخفى القائد وراءه الهدف السياسى لنقل مخطوطات بخارى إلى بطرسبرج .

(١) فى كتابه (تلفيق الأخبار وتلفيح الآثار ، فى وقائع قازان وبلغار) وهو مطبوع فى قازان سنة ١٩٠٧ م .

وفى بطرسبورج بدأت مرحلة جديدة للمخطوط ، حيث كان فى انتظاره مع المخطوطات الأخرى ، لجان من الخبراء عكفت على ترميمه وفحصه ودراسته وصيانته . وكان المخطوط قد وصل من الشرق الإسلامى فى حالة تعيسة : فن بين صفحاته البالغ عددها ٣٥٣ صفحة ، لم يبق غير خمس عشرة صفحة ، سلمت من عبث الحشرات وأفاعيل الببلى .

وبقى المصحف فى بطرسبورج مصوناً ، نحو نصف قرن ، إلى أن استجاب « لينين » لرغبة المسلمين فى روسيا ، فى نقل المخطوط الثمين المبارك من لينينجراد — بطرسبورج قبل ثورة أكتوبر — إلى طشقند عاصمة أوزباكستان ، بعد أن صارت ولاية روسية . وتم النقل عام ١٩٢٢ حيث أودع فى المتحف التاريخى لشعوب أوزباكستان ، فى علبة من الخشب الثمين داخل صندوق من فولاذ ، وإلى جانبه وعاء من الزجاج مملوء بمسائل كيميائية — أظنه الكافور — للوقاية من الحشرات . ولا يباح للزائرين لمس المخطوط ، كما لا يباح نقله أو إعارته ، وإنما أُعيدت منه صورة فوتوغرافية ، طبع منها عدة نسخ وزعت على المراكز الإسلامية بالاتحاد السوفيتى ، بقصد التبرك .

وصورة أخرى منه ، بمتحف طشقند ، فى متناول من يطلبها من الدارسين أو الزائرين .

ولدينا صورة لورقة من مصحف طشقند ، صورها مدير الفنون الجميلة بتونس فى رحلة له إلى أوزباكستان ، ومنها نسخة بالإسكندرية فى مجموعة خطاطنا الكبير « الأستاذ محمد إبراهيم » مدير مدرسة تحسين الخطوط وأستاذ الكتابة العربية بمعهد الفنون الجميلة بالإسكندرية . وقد تفضل فأهدى إلى نسخة مصورة لها ، قابلتها على مصحف دار الكتب بالقاهرة ، وعلى ما لدى من صور لبرديات من عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموى — نقلاً بالتصوير عن الأصل فى قينا — ورجحت بعد هذه المقابلة ، أن مصحف طشقند يمكن أن يرقى إلى أواخر القرن الأول الهجرى . وخطه أقرب إلى خط مصحف دار الكتب . منه إلى خط المصحف الأثرى الموجود فى " مكتبة مسجد عقبة بن نافع بالقيروان " وهو مخطوط بماء الذهب على رِق أزرق نادر . والراجع أنه يرجع إلى القرن الثانى للهجرة .

وإلى مثل ما رجحتُ من تاريخ مصحف طشقند ، اطمأن عدد من علماء المخطوطات في الاتحاد السوفييتي ، منهم « المستشرق خالدوف مدير معهد الدراسات الشرقية في لينينجراد » .

وإن كان المسلمون في آسيا الوسطى السوفييتية ، يأخذون بالقول الشائع عن كونه المصحف الذي كان أمير المؤمنين « عثمان رضى الله عنه » يتلوفيه عند مقتله .

• • •

ولكى تتم الصورة ، أقابل بين المصير الذى آل إليه هذا المخطوط منذ وصل إلى أيدي الأجانب الغرباء ، وبين المصير المجهول لمخطوط آخر قيل إنه كذلك النسخة الأصلية للمصحف العثماني ، وأن على صفحاته أثراً من دماء الخليفة المقتول .

وقد كان هذا المخطوط في حوزتنا ، نحن المساميين العرب ، إلى ما قبل قرن ونصف قرن من الزمان ، ثم ضاع وتاهت آثاره ، واختلفت في مصيره الظنون وتعددت الأقوال .

وكنا بحيث نجهل كذلك أنه كان موجوداً قبل مائة وخمسين عاماً في مسجد قلعة حلب ، لو لم تنشر (مجلة المجمع العلمي بدمشق) مقالاً عنه ، لمناسبة مقال نشرته إحدى المجلات السوفييتية ، في شهر أبريل ١٩٦٣ ، عن "مصحف عثمان الموجود في طشقند" .

وفي مقال مجلة المجمع^(١) ، أن السيد « محمد بن عمر الكيالي » ذكر في كتابه (الحلة السنوية للرحلة الشامية) - وهو مؤلف في سنة ١٢٣٣ هـ - أنه زار أطلال قلعة حلب وصلى الظهر في مسجدتها ، ثم تشرف بمشاهدة المصحف العثماني ذى النور الساطع ، ورأى في بعض الكلمات آثار الدم ، التي هى براهين وبيانات على شهادة عثمان رضى الله عنه .

ثم يستفسر المقال عن مصير ذلك المصحف العثماني : ألا يزال موجوداً هناك ؟ أم نقل إلى الآستانة قبل الحرب وحفظ في متحف الأوقاف الإسلامية ؟ أم - على ما يقال - أخذه إمبراطور ألمانيا يوم زار بلاد الشام ، حتى قررت (معاهدة

(١) في عدد شهر أكتوبر سنة ١٩٦٣ ، من مجلة المجمع العلمي بدمشق .

سيفر) إعادته إلى المسلمين وتسليمه إلى الملك حسين ملك الحجاز ؟ وهل استلمه الملك حسين أو بقي لدى الألمان ؟ .

أسئلة حائرة لا تجد جواباً يكشف عن مصير ذلك المصحف الذى شوهه فى مسجد قلعة حلب منذ نحو قرن ونصف قرن ، ثم لم نعد نقف له على أثر
على أن الأسئلة الحائرة تلتى ضوءاً على قضية تراثنا ، حين تذكر سلطان تركيا وملك الحجاز وإمبراطور ألمانيا ومعاهدة سيفر .

* * *

هل أضيف أن فى القاهرة مخطوطاً ثالثاً يقال كذلك إنه (مصحف عثمان) مخزوناً فى ركن المخلفات بمسجد الإمام الحسين ، وأن مخطوطاً رابعاً ، لهذا المصحف العثماني ، قرأنا فى الصحف - عام ١٩٦٢ - خبر عثور وزارة الأوقاف المصرية عليه ، مدفوناً فى خزانة مهملة برواق المغاربة فى الجامع الأزهر ؟
ولا علم لنا بما تم فى أمر هذين المخطوطين ، كما لا علم لنا بمصير ألوف وألوف من ذخائر تراثنا ، مخزونة فى الزوايا والحدوابع ، أو ملقاة مع سقط المتاع فى دور العلماء الراحلين .

* * *

ولست أستبعد أن تكون مخطوطة طشقند ، ومخطوطة المسجد الحسيني ، وتلك التى عثر عليها برواق المغاربة فى الجامع الأزهر ، نسخاً قديمة منقولة عن المصحف الإمام مباشرة . وهذا الاحتمال يظل مجرد فرض ، إلى أن يتاح فحص المخطوطات الثلاث ، ومقابلتها مقابلة علمية تجيب عن الأسئلة الآتية :

- هل النسخ الثلاث ، مخطوطة على صنف واحد من الورق أو بديل الورق ؟
- وإلى أى عصر تنتمى بورقها وخطها ومدادها ونسق كتابتها ؟

- وهل هى مكتوبة بقلم ناسخ واحد ، ومداد واحد ، أو بأقلام مختلفة ومداد متعدد ؟ وهل هى متائلة فى عدد الصفحات ، ونسق الكتابة ، أو تختلف كل منها عن الأخرين ؟

- وهل هناك صلة بينها وبين المصحف الأثرى بمعرض دار الكتب المصرية ،

وخطه يشبه مصحف طشقند فيما أرجح . ومصحف القيروان الموجود بمكتبة مسجد عتمة بن نافع . ويرجع تاريخ خطه إلى القرن الثاني للهجرة ؟

لكن هذه المهمة الصعبة لا تتم بجهد فردى . دون رعاية من هيئة علمية تتيح للدارس أن يطلع على مخطوط طشقند اطلاق فحص وتأمل . ثم يعود بنسخة مصورة منه . وتبيء له كذلك مصورة من مصحف القيروان ، فتوضع المصورتان مع مخطوطات مصحف دار الكتب والمسجد الحسيني ورواق المغاربة ، في أصولها بالقاهرة .

ولعلنا لا نستثقل هذا العبء ، أو نرى فيه ما يبعثنا عن روح العصر ، إذا ذكرنا أن « السيدة كراتشكوفسكايا » - أرملة عميد المستشرقين الروس - قدمت بحثاً إلى مؤتمر المستشرقين الدولي الذي عقد في موسكو صيف عام ١٩٦٠ ، كان موضوعه : " نواذر المخطوطات القرآنية من القرن السادس عشر " وقد استغرق إعداد البحث عشر سنوات دأباً ، برعاية المجمع العلمي للاتحاد السوفيتي ، المشغول ببحوث الفضاء وغزو القمر !

رُبَّانِ السَّفِينَةِ عَلَى مَعْبَرِ الْحَضَارَةِ

قد ينجل المثقف منا . ألا يعرف الملاح
البرتغالي الشهير « فاسكو دا جاما » .

ولا ينجله أن يجهل اسم الملاح العربي
« أحمد بن ماجد » ربان سفينة فاسكو في رحلتها
التاريخية !

وأقدم هنا كتاباً من تراث أحمد بن ماجد ،
نشره المجمع العلمي للاتحاد السوفيتي . مع بحث
للمستعرب الروسي شوموفسكي نال به درجة
"الكائيدات" من كلية معهد الاستشراق بموسكو .

obeikandi.com

وهذا كتاب من تراثنا ، يأتينا من موسكو ، وقد حققه المستشرق « تيودور شوموفسكى » ونشره المجمع العلمى للاتحاد السوفيتى ، فى عصر غزو الفضاء .
ومعدرة عن البدء بذكر المحقق والناشر ، قبل أن أذكر اسم الكتاب ومؤلفه ،
فقد يبدو لى أننا لا نزال فى حاجة إلى تبرير عنايتنا بقديمتنا ، باللفت إلى ما يحمل
من بصمة الغرب الجديد ، لكى نقنع قومنا بأن المكتبة الغربية المعاصرة ، لا تزال
تجد فى تراثنا ما يستحق كل عناية :

ومؤلف الكتاب ، قد يبدو اسمه « أحمد بن ماجد » غريباً على أسمع هذا
الجيل من شباب العرب . وحين أقول إن كتابه يتسمى إلى العصور الوسطى - وقد
عاش المؤلف فى القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى - فلعل من
شبابنا من يصدون عنه ، ويحسبونه أثراً متحفياً لا يعنى غير علماء التاريخ والآثار .
لكنهم بحيث يلتفتون إلى « أحمد بن ماجد » عندما يقترن اسمه بفاسكو داجاما ،
الذى لا يجهاون أنه مكتشف طريق رأس الرجاء الصالح .

ويلتفتون إلى كتابه ، حين يعلمون أنه خرج فى عصرنا - سنة ١٩٥٧ -
من « مطبعة الأكاديمية العلمية فى موسكو » .

• • •

وعنوان الكتاب على الغلاف الخارجى للطبعة الروسية :
(ثلاثة أزهار فى علم البحار) .

على حين يحمل الغلاف الداخلى عنوان :

(ثلاثة راهمانجات مجهولة)

لأحمد بن ماجد

ربان سفينة فاسكو دى جاما

والراهمانجات : جمع راهمانج - أو راهنامج - وهي كلمة أعجمية تعني كتاب البحر . وينسب إليها فقال : رهماني ، أي عالم بالبحار^(١) .

والنص الذي بأيدينا ، طبعه المجمع العلمي السوفيتي في مطبعته، بالتصوير الزنكوغرافي ، لنسخة فريدة بمكتبة معهد الاستشراق في لينينجراد .

وألحق به الترجمة الروسية بقلم شوموفسكي ، وفهارس البلدان ، والمصطلحات الفلكية والبحرية ، مع مصور جغرافي يحمل هذا العنوان :

(صورة بحر الهند ، وبها البنادر التي ندخها أحمد بن ماجد)

وأحتاج هنا أيضاً إلى تفسير لفظ "نَدَخَهَا" فأقول إن الفعل في معاجمنا اللغوية ، يعني : صدم ، ويستعمل في البحار بخاصة ، فيقول راكب البحر : ندخنا ساحل كذا ، وأندخنا المراكب الساحل .

• • •

(١) ذكر المستشرق الفرنسي «فيران» أن اللفظ يرتفع أساساً إلى الفارسية الوسطى ، الفهلوية : (راهمنك) التي تحولت في الفارسية الحديثة إلى (راهنامه) وانتقلت إلى العربية بلفظ (راهنامج) أو مقلوبه : راهمانج ، وتعني الراهمانجات في عصر ابن ماجد « المرشدات البحرية » .

وقصة المخطوط ومؤلفه ، في الغرب ، قصة مثيرة^(١) : وهي تبدأ عندما اكتشفه « كراتشكوفسكى » في أوائل هذا القرن ، ضمن مجموعة المخطوطات العربية في معهد الاستشراق في بطرسبورج . ولم تكن لدى المستشرق الكبير فكرة واضحة عن « ابن ماجد » صاحب المخطوط ، ثم لما بدأ يحاضر في الأدب الجغرافي العربي بالمعهد الشرقي في بطرسبورج - بين عامي ١٩١٠ ، ١٩١٧ - اتصل بالبحوث الخصبية التي نشرها المستشرق الفرنسي « جابرييل فيران » في تاريخ الجغرافية البحرية في العصور الوسطى . وكان « فيران » قد أمضى أعواماً طويلة ، في الثلث الأول من هذا القرن ، في الخدمة الدبلوماسية بالمستعمرات الفرنسية في الشرق الآسيوي ، وتخصص في دراسة تراث التاريخ الجغرافي والملاحى لهذه الأقاليم وقد عثر في المكتبة القومية ببباريس ، سنة ١٩١٢ ، على مخطوطين عربيين في مجال دراساته ، أحدهما يتضمن تسع عشرة أرجوزة لأحمد بن ماجد في وصف الملاحة بالبحر الأحمر والخليج العربي الفارسي ، والمحيط الهندي ، وكان الظن عندئذ أنها نسخة فريدة^(٢) ، وقد بدأ « فيران » في دراستها من عام ١٩١٤ . وكان من المعروف أن ملاحاً عربياً صاحب فاسكو دا جاما في رحلته الأولى سنة ١٤٩٨ من مالندى على الساحل الشرقي لإفريقية إلى كلكتا بالهند . وترد المعلومات عن هذا الملاح العربي في المصادر البرتغالية غامضة . وهي تتحدث عنه باسم « مالميو كانا ، أو مالميو كاناكا » وبفضل جهود « فيران » استطاع أن يحقق هذا الاسم بمقابلة النصوص البرتغالية على المصادر العربية والتركية . وسوف نشير فيما بعد إلى ما وصل إليه من أن الاسم الحقيقي للملاح العربي هو « شهاب الدين أحمد ابن ماجد بن معلق السعدى بن أبي الركائب النجدى » وقد تواری هذا الاسم خلف

(١) اعتمدت فيما أرويه هنا ، على ما كتبه كراتشكوفسكى في الفصل العشرين من كتابه « تاريخ الأدب الجغرافي العربي » وأذكر بالشكر والتقدير ، ما زودني به كذلك ، الأستاذ محمد منير مرسى - وقد كان مدرساً للغة العربية بالاتحاد السوفيتي - من معلومات هامة استكملت بها عناصر القصة .

(٢) ظهرت بعدها في أوائل العقد الثاني من هذا القرن ، نسخة أخرى في دمشق أشارت إليها مجلة المجمع العلمي بدمشق وجذبت اهتمام فيران . كما ظهرت شائعة عن وجود نسخة بجمدة وتم الكشف بعد ذلك عن مصنفات أخرى لابن ماجد في الموصل ، لا أعلم أنها حققت أو درست .

« مالميوكاناكا » الذى هو لقب بمعنى « المعلم » الخبير بالشئون الملاحية والفلكية .
وبدا لكراتشكوفسكى أن يكتب لفيران بشأن الأراجيز الثلاث التى عثر عليها
في معهد الاستشراق ، وهل ثمة نسخ أخرى لها ؟ ورد عليه « فيران » بأنها فيما يعلم
نسخة وحيدة فريدة . وكان من رأى كراتشكوفسكى أن يتولى فيران مهمة تحقيق
هذا المخطوط لعمق تخصصه في هذا المجال من التراث العربى . لكن وفاة المستشرق
الفرنسى الكبير ، حالت دون ذلك .

وبقيت الأراجيز الثلاث تنتظر ، إلى أن جاء « تيودور شوموفسكى » — من
تلاميذ كراتشكوفسكى — فتنفرغ لدراسة المخطوط ، في رسالة علمية نال بها «درجة
الكانديدات» من معهد الاستشراق في موسكو . ثم كان المجمع العلمى للاتحاد
السوفييتى ، هو الذى تولى طبع المخطوط ، في مطبعته بموسكو مع رسالة شوموفسكى
سنة ١٩٥٧ .

ورسالة شوموفسكى تبدأ بمقدمة كتبها « أولدروج » ، تليها فصول أربعة :
الأول منها يقدم نص الأراجيز الثلاث بالتصوير الزنكوغرافى للأصل العربى ،
ويقدم الثانى ترجمة روسية له ، وفى الفصل الثالث بيان لموضوع الكتاب وقيمته ،
وفى الرابع محاولة للمح للمح الروح العلمية لابن ماجد فى كتابه ، مع تعليقات للدارس
الروسى .

وأنقل هنا ما جاء فى رسالة شوموفسكى عن حكاية التقاء فاسكودا بجاما
بأحمد بن ماجد (١) :

وهى تبدأ فى مدينة مالندى على الساحل الشرقى لإفريقية . حيث وصل دى جاما
من جنوب إفريقية . وهناك أشار عليه أحد سلاطين المنطقة . بأن يصحب معه
« ابن ماجد » ، رباناً خبيراً ماهراً يمكنه أن يقود السفن البرتغالية إلى الهند ، بما له
من خبرة طويلة ببحار الجنوب .

وبفضل ابن ماجد ، عرف البرتغاليون الطريق إلى الشرق ، فكان ذلك بداية
مأساة حزينة عاشها الشرق : لقد استطاعت البرتغال ، وكانت هى وأسبانيا أعظم دولتين

(١) انتفعت هنا أيضاً ، برسالة من السيد الزميل محمد منير مرسى . مع ما جاء فى كتاب كراتشكوفسكى
عن أحمد بن ماجد ، ترجمة الزميل الدكتور صلاح الدين هاشم .

بحريتين في القرن الخامس عشر، أن تمد نفوذها الاستعماري إلى الشرق وتستعبد شعوبه، وعاش «ابن ماجد» ليشهد حملة إبادة البرتغاليين للسلطين العرب في إفريقية الشرقية، وتدعيم الاستعمار البرتغالي في الهند وإندونيسيا.

وفي الوقت الذي وصل فيه فاسكودا جاما إلى المحيط الهندي، كانت هناك مدن مزدهرة وبلاد تجارية على سواحل إفريقية الشرقية. ومع أن سفن التجار الهنود كانت تزور موانئ البحر الأحمر وشرق إفريقية، كما وصلت السفن الصينية إلى الجنوب العربي ومقديشيو ومالندى، إلا أن السيطرة على المحيط الهندي كانت للتجار العرب، وكان لهم النفوذ التجاري على الساحل كله، من سفالية في جنوب الساحل الإفريقي الشرقي، إلى جزيرة سومطرة.

فللغرب إذن ماضٍ حضاري مزدهر في البحرية. لكن عندما طوى هذا الماضي صارت الثقافة العربية تكاد لا تخرج عن ثقافة بدو رُحَّل في الصحراء، أو هذا ما تصوره أحياناً. في حين يعرف التاريخ أن البحارة الأوروبيين في القرن الخامس عشر، كانوا تلاميذ للعرب، وأن الملاح البرتغالي «أنريكو» الذي يرتبط باسمه أشهر الكشوف الجغرافية البرتغالية، قد استفاد من تجارب العرب في رحلاتهم البحرية شرق إفريقية. واستطاع البرتغاليون بفضل هذه التجارب والخبرات أن يبرعوا في صنع الأدوات البحرية ورسم الخرائط وتشكيل هيئة القيادة البحرية وتصميم أنواع جديدة من السفن، ولم يقتصر تأثير العرب على البرتغاليين فحسب، بل امتد إلى الغرب الأوروبي حيث نرى المصطلحات البحرية مأخوذة عن العرب.

• • •

أما عن مؤلفات «ابن ماجد» فتشير رسالة شوموفسكى إلى :
«حاوية الاختصار في أصول علم البحار»: ويرجع تاريخ تأليفه إلى سنة ٨٦٦هـ (١٤٦٢ م).

«كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد»: وقد طبع في باريس بتحقيق المستشرق الفرنسي الكبير، «جابريل فيران» الذي يصفه بأنه أوضح ما ألف ابن ماجد^(١).

(١) انظر حديث كراتشكوفسكى عن هذين الكتابين، في ص ٥٧٥ وما بعدها من الترجمة العربية لكتاب كراتشكوفسكى. «تاريخ الأدب الجغرافي العربي».

ونشر النص العربي لأراجيز ابن ماجد بالتصوير ، لم يدع مجالاً لهوامش وتعليقات حول النص ، تحقيقاً أو خدمة ، وإنما جاءت كلها في الفصل الرابع ، باللغة الروسية . وقد حال جهلى بها دون قراءتها ، فاكتفيت بالنص العربي المصور للكتاب ، وهو يحمل من المعالم الهادية إلى التوثيق نوع الخط ونمط الأسلوب :

وخط النسخة فيما أرحح ، من خط القرن التاسع الهجرى ، أى من عصر ابن ماجد .

أما نمط الأسلوب ، فن النظم العلمى الذى شاع التأليف به بعد أن استقرت العلوم ورسخت فى العربية ، فهو على غرار (ألفية ابن مالك) فى النحو ، و (عينية ابن سينا) فى الفلسفة ، و (متن السلم للأخضرى) فى المنطق ، و (متن الشاطبية) فى القراءة وعلم التجديد ، وغيرها من المتون العلمية المنظومة فى أكثر علوم العربية والإسلام .

وموضوع الكتاب ثلاث أراجيز فى علم البحار وما يتصل به من جغرافيا وفلك . والنظم فى مثل هذا أشق وأعسر من النظم فى العلوم اللغوية والأدبية . ومن عجب أن « ابن ماجد » استطاع أن ينظم مادته العلمية وخبراته الملاحية ، الحافلة بالإشارات الفلكية والمشحونة بأسماء المدن والموانىء والجزر والخلجان والشعاب . لكنه اضطر ، لكى يتمكن من تطويع المادة للنظم ، إلى التوضيحية أحياناً ببعض قواعد النحو، والإخلال أحياناً ببعض ضوابط الصرف والاشتقاق، كى تسلم له المادة العلمية . كما احتاج إلى إضافة ألفاظ قضت بها تسوية صنعة النظم وحكم القافية ، وهى ضرورة يندر أن ينجو منها ناظم من أصحاب المتون .

والأرجوزة الأولى اسمها "السفالية" نسبة إلى إقليم سفالة من بر الزنج على ساحل الصومال السفلى - الجنوبي - ومطلع الأرجوزة :

الحمد لله الذى أنشأ المَلَا

من عدم ، جلّ تعالى وعلا

قد كلّمت الألسن عن أوصافه

وكم نرى فى البحر من أظافه

وعدد أبياتها سبعمائة وستة وأربعون بيتاً ، وفيها بيان دقيق لبحر الهند والسواحل الشرقية لإفريقيا وجزيرة القمر (مدغشقر) وأسرار الملاحة فيها ، ووصف لسكانها وأحوالهم الاجتماعية .

ومطلع الأرجوزة الثانية ، المسماة بالمعلّقة ، نسبة إلى « المعلّق » السعدي جد المؤلف ، وكان نادرة زمانه في علم البحر :

عزمتُ والعزم حميد في السفر
 لاسيا من بلدة فيها ضرر
 طالب تحت الريح بالإذعان
 في مركب يطير كالعقبان
 من أرض كاليكوت بالعنساية
 بأول الستين فوق المايه

وعدد أبياتها مائتان وواحد وسبعون ، وفيها بيان للملاحة "من بر الهند إلى بر سيلان ومطيرة والسيام وجاوة ، وما كان في طريقها من الجزر والشعبان ، وكذلك بلاد الغور والصين إلى الحدود الشارقة على البحر المحيط" .

ومطلع الأرجوزة الثالثة :

سرتُ نسمة الفردوس من أرض مكة
 بريح الصبا فاشتقت السير حلبتي

وأبياتها خمسة وخمسون بيتاً ، وترشد ربابنة البحار بأدق بيان ، إلى الملاحة في بحر القلزم من جدة إلى عدن .

* * *

ولاحق لي في التعرض للمادة العلمية لكتاب ابن ماجد ، ولست من أصحاب الدراية بعلم البحار وما يتصل به من جغرافيا وفلك . وإنما أنظر الكتاب من نواح أخرى ذات بال :

فهو أولاً : أثر تاريخي هام ، للملاح العربي الذي قاد سفينة فاسكودا جاما على معبر تحولٍ خطير من العصور الوسطى إلى العصر الحديث ، وما تبع هذا

التحول من تطور حاسم في التاريخ الاقتصادي والحضارى والسياسى ، للشرق والغرب جميعاً .

وهو ثانياً : مصدر أصيل لمعجم ألفاظ عصره وأتماط أساليبه ، كما أنه يسد ثغرة كبيرة في التاريخ الاجتماعى لشعوب شرقية ، بما يصف لنا من أحوال الناس وعاداتهم وأعرافهم وتقاليدهم ومواسمهم وأخلاقهم وأمزجتهم ، في كل منطقة من الشرق الآسيوى الإفريقى ، مرّ بها ملاحنا العربى .

وهو ثالثاً : يلفت إلى اهتمام علماء الروس المعاصرين ، بذلك الكتاب الذى ألفه ملاح عربى أمضى في البحار نحو نصف قرن ، وخبر من الأسرار الملاحية والفلكية ، ما لا شك في قيمته وجدواه عند المشتغلين ببحوث الفلك والفضاء .

وهو رابعاً : يقدم إلينا مزيداً من ملامح العقلية العلمية للعرب ، وقد طالما ارتاب المرابون فيها . كما يضيف جديداً إلى ما نعلمه عن شخصية عالم عربى يستطيع أن يتقدم مع زملائه العلماء العرب لتصحيح الفكرة الشائعة عن مناهج الدرس العلمى في البيئة العربية ، وأن يعطى البيئة الحديثة بعض ضوابط منهجية يحسبها كثير منا من بضاعة الغرب الحديث .

لقد نشرت باريس من قبل ، كتاباً آخر في علم البحرية لابن ماجد ، هو (كتاب الفوائد في أصول البحر والقواعد) .

وفيه يخضع عالمنا المؤلف ، لمنهج علمى دقيق ، ويجعل « التجريب » أساساً للعلم فيقول :

« إن التجريب شيء ما بعده شيء » ص ٤٨ (١) .

ويلتفت إلى العلل التى تشوب القياس فى التجربة ، قائلاً لربابنة البحار :

« فلو قاس هذه الأنجم المجهولات أحد منكم ، لا يتكلم بها إلا بعد تجربة مكررة ثم مكررة ، صافية من العلل ، فربما جرب أحدكم قياساً وفيه علة وما اطلع عليها ، فإذا رآه تكرر ، ينبغى أن ينطق به ، فوالله ما حققت هذه القياسات

(١) الرقم هنا وفيما يلى ، يشير إلى موضعه من (كتاب الفوائد في أصول البحر والقواعد)

لابن ماجد . ط باريس .

المنتخبات إلا بعد أن كررت عليها التجربة عشرين سنة . . .

« ولم أترك في السماء نجماً إلا وقد قست درجته ، وعرفت نقصانه وزيادته »
ص ٤٨ ، ٥٢ .

ويحذر كذلك من استهواء المنطق ، فيما تكون التجربة دليلاً وبرهاناً ، فيقول :
« فإن أكثر الخطأ في كثرة المنطق ، خصوصاً في هذه الصنعة . وخطؤها في
المنطق أكثر من خطئها في العلم » ص ٦٢ .

« وأصل علم البحر : الفن والتجريب ، فإن كان مجرباً موافقاً للعقل فهو
صحيح تجزم بصحته لاستكمال الأصلين » . ص ١٨٦ .

ويؤكد أهمية الوراثة العلمية وضرورة التلقي عن شيوخ الصنعة وحضور مجالسهم
معتزاً بما توفر له من ذلك بمثل قوله :

« جَدِّي عليه الرحمة والغفران ، كان نادرة زمانه في ذلك البحر . واستفاد منه
والدى عليه الرحمة والغفران^(١) وقد أخذت علم الرجلين ، مع كثرة التجربة ، وحضرت
عشرين حلقة زاخرة بالمعالم المحققين » ص ٥٦ .

ويؤصل قاعدة منهجية ، في استيعاب الدارس لآثار من سبقوه في الميدان ،
لكي يبدأ من حيث انتهوا :

« فإن نهاية المتقدم بداية المتأخر » .

وقد التزم « ابن ماجد » هذا السلوك العلمي ، فاتباع آثار السابقين وأكبر جهودهم ،
واختار لنفسه لقب « رابع الثلاثة » اعترافاً منه بفضل أئمة ثلاثة من علماء البحرية
العرب تقدموه على الطريق : « عبد العزيز بن أحمد المغربي ، وموسى الصنداني ،
وميمون بن خليل » وقال فيهم :

« وقد عظمنا علم سابقينا وتأليفهم ، وأجللنا قدرهم رحمة الله عليهم بقولنا :
أنا رابع الثلاثة » .

(١) نقل كراتشكوفسكى عن الرحالة المشهور سير ريتشارد بورتون ، أن ملاحى عدن
كانوا إلى منتصف القرن التاسع عشر ينسبون اختراع البوصلة إلى ولى من أهل الشام يدعى الشيخ
ماجد ويقرون الفاتحة على روجه قبل ركوبهم البحر - ٥٧٣/٢ .

وفي « ابن ماجد » من شيم العلماء، تواضع من لا يرى نفسه قطب العلم ونادرة الزمان وعبقرية الدهر ، وما كان أعظمه حين قال عن أحد مخترعاته :

« ومن اختراعنا في علم البحر ، تركيب المغناطيس على الحقة بنفسه ، ولنا فيه حكمة كبيرة لم تودع في كتاب . . . فإذا كان أحد - غيرنا - يعرف ، فنحن مسبوقون » . ص ٤٦ .

* * *

وأعود على بدء ، فأنظر في كتاب ابن ماجد من حيث اتصاله بقضية تراثنا بين الشرق والغرب . ففي الوقت الذي شهد هذه الجهود الحادة المضيئة لعلماء الاستشراق في الكشف عن كنوز تراثنا وماضي حضارتنا ، ومضت رسائلهم تروح وتجيء ما بين موسكو وباريس سعيًا وراء مخطوط لأحمد بن ماجد ، واستكمالاً لوسائل تحقيقه ومعرفة شخصية مؤلفه ،

انقطعت صلة هذه الأجيال منا بهذا الماضي البعيد القريب ، وغابت عنهم خطوات أجدادهم على درب التقدم والمعرفة ، وثمار جهودهم في التاريخ الحضاري للإنسانية ، ودورهم في قيادته وتوجيهه .

وإذ نقف بمخطوط ابن ماجد ، عندما سماه « كراتشكوفسكي » : « لحظة حاسمة لانتقال السيطرة من الشرق إلى الغرب » أنقل هنا من حديث ذلك المستشرق الكبير عن الجغرافيا الملاحية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر :

« . . . وعندما وضع فرامورو Fra Mauro مصوره الجغرافي في عام ١٤٥٧ ، ذكر أن ملاحاً عربياً (؟) أبحر حوالي عام ١٤٢٠ من المحيط الهندي حول القارة الإفريقية فظهر بالمحيط الأطلنطي . وقد أبصر فاسكو دا جاما Vasco Da Gama في عام ١٤٩٨ سفناً عربية إلى الشمال من موزبيق تحمل البوصلة - بيت الإبرة - وخارطات بحرية . وهو يذكر ذلك حرفياً بقوله : « ويحمل الربابنة بوصلات لتوجيه السفن وآلات للرصد وخارطات بحرية . »

«وعلى إحدى هذه السفن وجد فاسكو دا جاما مخطوطات عربية بعث بها إلى الملك مانويل Manoel . أما مواطنه الشهير البوكرك Albuquerque فإنه يدين بفتوحاته

في منطقة عمان والخليج الفارسي ، بقدر ليس بالقليل ، إلى خارطة بحرية من عمل ربان عربي يدعى "عمر" . ويقول في مذكراته : إن ملاحاً مسلماً وقع في أسر البرتغاليين عند جزيرة سقطرى ، كان رباناً عظيماً ذا معرفة جيدة بهذا الساحل ، وقد أعطاه مرشداً للطرق البحرية مبيناً عليه جميع موانئ مملكة هرمز ، وهو من وضع ربان آخر يدعى "عمر" كان قد صحبه في البحر .

« ومن تقرير لألبوكرك ، رفعه إلى ملك البرتغال بتاريخ أول أبريل ١٥١٢ نعرف أنه قد بعث إلى الملك بصورة منقولة عن خارطة كبيرة عملها ربان أصله من جاوة ، ويظهر فيها رأس الرجاء الصالح ، والبحر الأحمر وبحر فارس وجزائر الملوكاس والطرق البحرية لأهل الصين وأهل فورموزا . وقد بيّنت الخطوط والطرق التي تسلكها السفن .

« وستبصر بعد وهلة أن فاسكو دا جاما نفسه ، قد وفق في الإفادة من تجربة العرب العلمية . فالمؤرخ البرتغالي "باروش" يذكر في كتابه "آسيا البرتغالية" أن فاسكو دا جاما التقى في مالندى بمسلم من كجرات يدعى المعلم كانا (؟) ووجد لديه عدد كبير من الخارطات والآلات . هذا وقد تمكن البحائه في بداية القرن العشرين من الكشف عن شخصية "المعلم كانا" الذي دل فاسكو دا جاما على الطريق من مالندى إلى قاليقوت بالهند»^(١).

• • •

والعبارة هنا ، في هذا النص عن ربان سفينة دا جاما غامضة ، وقد كان عثور كراتشكوفسكى على مخطوط أحمد بن ماجد ، هو الذي دفعه إلى متابعة البحث عن شخصية المؤلف ، وتتبع ما نشر «جابريل فيران» عن الجغرافيا التاريخية في العصور الوسطى ، وقرأ نتيجة بحوثه المقارنة ، بين المصادر البرتغالية والعربية والتركية عن قائد السفينة المشهورة . ويأتي اسم الربان في المصادر البرتغالية: "Malemo Cana" وقد يذكر باسم Canaqua . وقد أثبت فيران أنه من ألقاب الاحترام لا من أسماء الأعلام وأن لفظ Malemo ليس سوى اللفظ العربي "معلم" باللغة السواحيلية السائدة

(١) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافي العربي : ج ٢ ص ٥٦٤ وما بعدها من الترجمة العربية للدكتور صلاح الدين هاشم ، نشر جامعة الدول العربية .

بإفريقية . وقد دخل في الاصطلاح الملاحي وأطلق على الشخص الذي نال خبرة عملية ونظرية في المسائل البحرية ، وجمعه : معاملة .

أما لفظ "كاناكا" فهو يقابل اللفظ السنسكريتي Ganica ويعني الحاسب والمنجم .

ومن هنا ثبت أن لفظ "المعلم كانا" في النص البرتغالي عن دليل « دا جاما » يعنى « الخبير بالشئون الملاحية والفلكية » وليس اسم علم لشخص ... ووراء هذا اللقب ، أغفلت المصادر البرتغالية اسم الربان العربي ، حتى أمكن الكشف عنه بالرجوع إلى نص في مخطوط لمؤلف عربي هو « قطب الدين النهروالى » يرجع تأليفه إلى نحو خمسين عاماً بعد ذلك الحادث الخطير ، أى كشف البرتغاليين لطريق الشرق !

ولست أدري ما إذا كان أحد من مؤرخينا قد اطلع على مخطوط النهروالى قبل أن يلتقط منه « سلفستر دى ساسى » سنة ١٧٩٤ ، مارواه عن ربان سفينة فامكو دا جاما ؟

أما هناك في الغرب ، فظهرت بعد قرن تقريباً من سلفستر دى ساسى ، ترجمة برتغالية لرواية النهروالى ، قدمها دافيد لوبيز David Lopes سنة ١٨٩٢ . ثم كان «فيران» هو الذى عكف على قراءة النص العربى وخدمته وترجمته ، وزوده بتعليقات هامة في هذه القضية ، وعليها اعتمد « كراتشكوفسكى » في دراسته لها ، واستكمالها لمادة بحوثه الخصبية في التاريخ الجغرافى لعصر ابن ماجد .

وقطب الدين النهروالى (٩١٧ : ٩٩٠ هـ - ١٥١١ : ١٥٨٢ م) أدرك شيوخ ذلك العصر ، ولقى الذين شهدوا الرحلة التاريخية التى قادها ابن ماجد رباناً ودليلاً ، وما أعقب ذلك من تحول خطير عدّه قومنا كارثة قضت على ما كان للمسلمين من سيطرة على بحار المنطقة ، وفتحت ثغرة للتسلل الاستعمارى ما يزال الشرق حتى اليوم يئن من صدمتها .

والنص الذى أحدث كل هذا الدوى في الميدان الغربى ، ورد في كتاب النهروالى عن فتح العثمانيين لليمن : (البرق اليماني في الفتح العثماني) وفيه يقول النهروالى :

« وقع في أول القرن العاشر - ١٤٩٥ م - من الحوادث الفوادر ،

دخول البرتغال اللعين من طايفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند . وكانت طايفة منهم يركبون من زقاق سبته - مضيق جبال طارق - ويلجئون في (بحر) الظلمات ويمرون خلف جبال القُمر - جمع أقمر أى أبيض - وهى أصل بحر النيل . ويصلون إلى المشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل في مضيق ، أحدُ جانبيه جبل وإلخانب الثانى في بحر الظلمات ، في مكان كثير الأمواج لا تستقر به سفائهم وتنكسر ولا ينجو منهم أحد . واستمروا على ذلك مدة يهلكون في ذلك المكان ولا يخلص من طايفتهم أحد إلى بحر الهند ، إلى أن خلاص منهم غراب - سفينة صغيرة - إلى (بحر) الهند فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر ، إلى أن دلهم شخص ماهر من أمراء البحر يقال له أحمد بن ماجد ، صاحبه كبيرُ الفرنج وكان يقال له (١) الأملندى ، وعاشره في السكر فعلمه الطريق في حال سكره وقال لهم : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان وتوغلوا في البحر ثم عودوا فلا تنا لكم الأمواج . فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم فكثروا في بحر الهند وبنوا « كوة » (٢) اسم لموضع من ساحل الدكن هو تحت الفرنج الآن ، (و) من بلاد الدكن قلعة يسمونها كوتا . ثم أخذوا هرموز وتقووا هناك وصارت الأمداد تترادف عليهم من البرتغال فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً ويأخذون كل سفينة غصباً ، إلى أن كثر ضررهم وعم أذاهم على المسافرين فأرسل السلطان مظفر شاه بن محمود شاه بن محمد شاه ، سلطان كجرات يومئذ (٩١٧ : ٩٣٢ هـ ١٥١١ . ١٥٢٥ م) إلى السلطان الأشرف قانصوه الغورى يستعين به على الإفرنج .

* * *

وبفضل هذا النص ، من مخطوط قديم لقطب الدين النهروالى ، اتجه علماء الغرب - كما يصرح كراتشكوفسكى - إلى أن يتذكروا أن مصنفات شخص باسم

(١) إذا كان الضمير هنا لكبير الفرنج ، وهو أقرب مذكور ، فالأملندى فيما يقول فيران : هو الشكل العربى لفظ البرتغالى الميرانتى Almurante أى الأميرال - يعنى فاسكودا جاما . ص ٥٧١ .
أما إذا كان الضمير لأحمد بن ماجد ، فيبدو محتملاً أن يكون الأملندى نسبة غير قياسية إلى « مالندى » وفيها كان يعيش ابن ماجد ، ومنها كانت رحلته رباناً لسفينة فاسكودا جاما إلى الهند .

(٢) هى مدينة جوا البرتغالية على ساحل الدكن ، Nova Goa .

« أحمد بن ماجد » كانت المصدر الأساسي لمصنّف في الجغرافيا اللّاحية ووضعه أمير البحر التركي « على ريس » الذي قذف به مصيره إلى الخليج الفارسي والهند بعد خمسين عاماً بالتقريب من الحوادث التي نتكلم عنها . فهذا الأميرال التركي يذكر في مقدمة كتابه عدداً من مصنفات أحمد بن ماجد بعناوينها . ويفضل هذا وجدّ اسم ابن ماجد طريقه إلى الدوائر العلمية الأوروبية منذ بداية القرن التاسع عشر . غير أن الكشف عن الأصول العربية لمصنفاته تأخر إلى عام ١٩١٢ ، حيث عثر على مخطوطتين في المكتبة الأهلية بباريس . ومن الغريب حقاً أن ذلك الكشف الهام كان عليه أن ينتظر إلى عام ١٩١٢ ، مع أن المخطوطتين قد ورد ذكرهما في فهرس المكتبة الذي صنّفه « دي سلان De Slane » عام ١٨٩٥ . وقد ساق الكشف عن هاتين المخطوطتين الفرديتين إلى الكشف شيئاً فشيئاً عن مخطوطات أخرى ومواد ماثلة (١) .

وأحصى كراتشكوفسكى ما عرف إلى زمنه من «مصنفات أحمد بن ماجد» ، فذكر أنها تبلغ نحو أربعين مصنفاً .

* * *

أما هنا ، فلست أذكر أني لحت أثراً لابن ماجد فيما قرأت للدارسين والمؤرخين العرب ، باستثناء عدد قليل منهم ، لعل أولهم ، فيما أذكر ، شيخ العروبة أحمد زكي الذي أشار في سنة ١٩١٧ إلى أن «أحمد بن ماجد» هو المرشد الذي تكلمت عنه المصادر البرتغالية .

وفي سنة ١٩٢٢ أتيح لطالب مصري كان يدرس القانون في فرنسا - وهو الأستاذ الدكتور محمد أمين ملش الحماي - أن يطلع على ما في المكتبة القومية بباريس من تراث ابن ماجد الذي كان يشغل دوائر الاستشراق هناك في ذلك الحين . ثم لما عاد إلى مصر سنة ١٩٣٦ لفت دار الكتب المصرية إلى ضرورة تصوير هذه الذخائر . كما حرص من ذلك الحين على أن يتعرف إلى تراثنا التاريخي في قوانين الملاحة البحرية . وقد ألقى عام ١٩٦٠ محاضرة بالأزهر عن «الأساطيل الإسلامية والأصول العربية للتشريع البحري الحديث» وفيها إشارة

(١) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، الترجمة العربية .

إلى « ابن ماجد » في سياق العرض التاريخي الرائع لأبحارنا البحرية ، مع دراسة مقارنة للتشريع البحري الحديث وتقاليدنا الملاحية ، تكشف عن أثر باق للعرب في هذا الميدان ، تشهد به المصطلحات العلمية العربية في نصوص التشريع البحري الحديث ، وقد بلغ ما أحصاه الدكتور ملش من هذه المصطلحات ، في اللغة الفرنسية وحدها ، ثلاثمائة مصطلح لا تزال تحتفظ بأصلها العربي على لسان الفرنجة . (١)

وثالث من علمائنا ، هو « الأستاذ الدكتور حسين فوزي » التي في رحلاته عبر تاريخنا بأحمد بن ماجد . عن طريق « قطب الدين النهروالي » الذي سجل المشهد المثير لانتقال شعلة حضارية من الشرق إلى الغرب ، وكان « ابن ماجد » بطل ذلك المشهد على ما نقلنا من حديث قطب الدين ، في كتابه (البرق اليماني في الفتح العثماني) .

وقد أطال سندبادنا العصري الوقوف أمام رواية النهروالي متأملاً ، وتتبع آثار رحلة ابن ماجد على السفينة البرتغالية ، وهي الرحلة التي دخلت التاريخ خطوة حاسمة على معبر الحضارة ، وكانت في الوقت نفسه إيداناً بمغيب الشمس عن أفقنا ، ليبدأ ليل الغزو الاستعماري الطويل .

وكان هذا هو موضوع محاضرة للأستاذ الدكتور ، ألقاها في الكويت عام ١٩٥٦ وانطلق فيها يرتاد مجاهل تاريخ الملاحة العربية في القرون الوسطى ، ويتلو هذه الصفحة المطوية عنا ، من تاريخنا الحضاري .

وهذا — فبا أعلم — هو كل رصيدنا من العناية بابن ماجد وتراثه !

* * *

وأختم هذا الحديث الذي طال عن ربان السفينة على معبر التحول التاريخي ، بوقفه عند حكاية سُكْرِ ابنِ ماجد ، التي جاءت في حديث قطب الدين النهروالي عن ملاحنا العربي الكبير .

وقد ذهب كراتشكوفسكى إلى أنه « يجب أن نطرح من هذا المتن ، الحكاية

(١) من رسالة خاصة تفضل السيد الدكتور محمد أمين ملش فبعثها إلى ، من الإسكندرية ، إضافة إلى مقال نشرته في « الأهرام » عن ابن ماجد وكتابه .

الخاصة بسُكر الربان المسلم ، إذ من الواضح أن المؤلف — قطب الدين النهروالى — إنما أراد بها على ما يبدو إيجاد تبرير لموافقة ذلك الملاح على أن يرشد سفينة للفرنجية .

وكذلك ارتاب فيها الأستاذ الدكتور حسين فوزى فى محاضرته ومراً بالمسألة غير مكثرٍ بها « لأنها لا تهمننا فى قليل أو كثير » .

على حين أراها بالغة الأهمية فى تفسير موقف الملاح العربى الذى قاد « فاسكو داجاما » إلى بحر الهند ، وأسلمه مفتاح الطريق إلى كنوز الشرق ، مما جعل بعض المؤرخين العرب يُحمّلونه وزرَ النكبات التى حاقت بالشرق الإسلامى من ذلك الحين ، ويعدونه مسئولاً عن مأساة الغزو البرتغالى الذى اجتاحت القارة الآسيوية « وألح على المسلمين أسراً ونهباً ، وأخذ كل سفينة غصباً » كما قال النهروالى بنص عبارته .

والمصادر البرتغالية ، تشير إلى الملاح المسلم ، فتذكر — فيما نقل كراتشكوفسكى عن مذكرات ألبوكرك — أن هذا الملاح وقع فى أسر البرتغاليين عند جزيرة سقطرى وكان رباناً عظيماً ذا معرفة جيدة بهذا الساحل ، وقد أعطى فاسكو داجاما مرشداً للطرق البحرية هناك . .

وبمقابلة هذه الرواية البرتغالية ، على الرواية العربية للنهروالى ، نجد أنهما تلتقيان فى القول بأن الملاح المسلم كان مسلوب الإرادة وهو يرشد فاسكو داجاما ، إما بسُكرٍ أو بأسرٍ . وإذا قدرنا أن النهروالى أدرك عصر ابن ماجد ، لم نجد ما يدعو إلى رفض روايته عن سكر هذا الملاح المسلم ، وليس لدينا أى دليل على اتهامها ، سوى الظن بأنه إنما « يبرر موافقة ذلك الملاح على أن يرشد سفينة للفرنجية » .

وإذا كنا بعقلية عصرنا الحديث ، ننظر إلى الرحلة من حيث أثرها الحاسم فى التقدم الحضارى . ولا نستطيع أن نلقى على كاهل فرد واحد ، تبعه حركة تحول حتمى ، قضت بها ظروف وعوامل مادية ومعنوية ، فإن لمؤرخينا القدامى عُذرتهم حين نظروا إلى الرحلة من زاويتها القومية . ورسدوا ما حاق بالشرق الإسلامى من ويلاتها . شأنهم فى ذلك شأن الذين عدوا حفر قناة السويس مسئولاً عن النكبات والحن التى حاقت بمصر منذ أعطى « سعيد » صديقه الأجنبى « فردينان

دى ليسبس» رخصة حفرة المعبر الذي ظل زماناً موطئاً لغول الاستعمار وقراصنة الرأسماليين من يهود الغرب .

وكما يحمل « سعيد » وزر هذه النكبات لدى من ينظرون إلى القناة هذه النظرة ، حَمَل مؤرخونا القدامى « أحمد بن ماجد » وزر المأساة التي كان الشرق الإسلامي مسرحاً لها منذ عرف البرتغال طريقهم إلى ساحل الهند . فإذا قال مؤلف (البرق اليماني) إن ابن ماجد فعل ما فعل وهو مسلوب الإرادة من أثر السكر ، وجب أن تستوقفنا هذه العبارة بدلالاتها على محنة الملاح المسلم الذي قاد الغزاة إلى وطنه ، وبكشفها عن الوسيلة الخبيثة التي لجأ إليها « كبير القرنج فاسكو دا جاما » ليحل عقدة لسانه ، ويستدرجه إلى الكشف عما خبر من أسرار البحر وفنون الملاحة ، ويتخذ منه دليلاً مرشداً لرحلة الغزو الاستعماري التي هي في حساب التاريخ العام ، رحلة انتقال للحضارة من الشرق إلى الغرب قضت به سنن حتمية ، وأعانت عليه ظروف للزمان والمكان .

* * *

والحديث عن مخطوط ابن ماجد في علم البحار ، وفضل كراتشكوفسكى في اكتشافه وتبج آثاره ، يغرى بحديث آخر عن سفر قيم لهذا المستشرق الكبير نشرته كذلك أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي وأعنى به (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) وتستطيعون أن ترجعوا إلى تعليقي عليه ، في المجلد الثاني من الترجمة العربية ، للزميل السوداني ، الدكتور صلاح الدين هاشم ، نشر جامعة الدول العربية .

obeikandi.com

كنز البردى ومجموعة ألبرتينا) في قينا

العرض الموجز لموضوع تراثنا بين شرق
وغرب ، تجلوه هذه القصة المثيرة للسباق بين دول
الغرب على كنز البردى ، ونحن بمعزل عن هذا
السباق ، كأنه لا يعنينا من قريب أو بعيد !

obeikandi.com

• في عطلة الصيف من عام ١٩٦٤ ، استأذنتُ جامعة عين شمس في السفر إلى فيينا في مهمة علمية لفحص أوراق البردى في مكتبة ألبرتينا الملحقة بمكتبة فيينا القومية ، وحدد قرار مجلس الجامعة لهذه المهمة مدة ثلاثة أشهر (يونيو - أغسطس) من ذلك الصيف .

• • •

ومن اليوم الأول أدركت أن الوقت المحدد للمهمة لا يكفي لاستيعاب ما هناك من سجلات البردى ووثائقها ، فضلاً عن فحص قدر كاف من البرديات العربية التي يبلغ عددها نحو عشرة آلاف بردية ، ضمن مجموعة ألبرتينا الكبرى التي يقرب عددها من مائة ألف بردية مصرية .

كما أدركت أن أى جهد فردي مهما يكن سخياً ومخلصاً ، لا يمكن أن ينهض بهذا العبء .

والواقع أنني ما كنت لأستطيع أن أفعل شيئاً ذا بال ، لولا وجود أستاذي « أمين الخولي » معي موجهاً ، ومساعدة ابنتي « أدبية أمين الخولي » التي تفرغت لترجمة النصوص والرسائل عن الألمانية ، وكانت مطالعتي السريعة لهذه النصوص ، قد كشفت لي عن ضرورة أخذ تراجم لها ، كاملة ودقيقة .

وكنت في رحلة لي سابقة إلى فيينا ، عام ١٩٥٩ ، قد زرت مكتبة ألبرتينا زيارة سريعة للاطلاع على محفوظاتها من ذخائر البردى والنظر في إمكان الانتفاع بها في توثيق مخطوطات تراثنا ، بمعرفة نماذج من الخط العربي المبكر ، ونسق الكتابة ، وأنواع الورق والمداد . وكان هذا على وجه الخصوص ، هو ما أسعى إليه في رحلتي الأولى إلى ألبرتينا ، غير أنني ما لبثت أن أدركت أن المسألة أخطر وأهم مما قدرت :

أولاً لا تُحصى من البردى ، تسجل حياة أجدادنا ، وتضيء للإنسانية

• من تقرير عن مجموعة بردى فيينا ، قدمته إلى جامعة عين شمس ، وإلى دار الكتب بمصر ، وطبعته موسكو باللغة العربية سنة ١٩٦٦ بعناية الزميل المستشرق « شربانوف » .

تاريخ مرحلة طويلة وهامة من ماضى حضارتها ، وتعطى التاريخ وثائق مادية كاشفة لما فيه من غموض ، ومصححة لكثير مما شابه من أخطاء ، ومكملة لقصور المرويات التقليدية التى تتسع للزيف والعبث والوضع ، وتعرض للتجريح والانهام .

ومعها ذخائر نادرة من مخطوطات على الرق والخشب والحزف والنسيج . ودائع تركها أسلافنا ، وطوتها أرض الوادى وأطلال خرابه لمدى قرون ودهور ، ثم لما بدأ الكشف عنها فى القرن التاسع عشر ، ازدراها قومنا فلم يجدوا فيها سوى نفايات رخيصة أو كفريات محرمة ، وتركوها للأجانب الذين تسابقوا على الكنز .

(١)

من سجلات البردى

وكانت المرحلة الأولى من العمل ، دراسة ما فى مخطوطات ألبرتينا من سجلات وبحوث لعلماء البردى ، وقد استطعت أن أستوعب منها ، أهم ما يحتاج إليه عملى وهذا بيان لما طالعتة منها باستيعاب :

١ - دليل « كراباتشك » للبردى الذى عُدَّ عليه فى الفيوم .

Karabacek, J. : Der Papyrusfund von el Eayùm.. Wien, 1882

وفيه لوحات النكوعراف ، لأهم الوثائق التى فُحصت من مجموعة الفيوم الأولى .

كراباتشك : « دليل عن مجموعة بردى الأرشيدوق راينر »

Fuhrer durch de Josef Karabacek : Papyrus Erzherzog Rainer. Wine, 1864.

وفيه عرض لأهم البرديات التى فُحصها كراباتشك ، منسقة فى فصول حسب لغاتها . والفصل الخاص بالبردى العربية ، يقدم ٩٥٠ بردية عربية مصرية ، من الفتح العربى لمصر ، إلى عصر المماليك . وهذه البرديات مرتبة ترتيباً تاريخياً ، مع تعليق من « كراباتشك » على نصها وما حوله من ظروف تاريخية . ويقع هذا القسم العربى من ص ١٢٣ . وأرقام بردياته فى فهرست ألبرتينا من ٥٥٠ : ١٤٠٠ .

٣ - وثائق رسمية من البردى العربية ، نشرها الدكتور جروهمان ج ١ طبع فيينا ١٩٢٣ .

Grohmann, A.; Protokolle u. Herausgaben. Wien, 1923

مع فهرس بأرقام هذه الوثائق - وعددها ٣٠٦ - فى المجموعة العامة .

٤ - جروهمان : « مدخل عام في البردى العربي » - فيينا ١٩٢٤ .

Grohmann, A. : Allgemeine Einführung in die Arabischen Papyri.

وفيه لمحة تاريخية ، لقصة العثور على البردى وأماكن العثور عليه . ومراحل انتقاله إلى أوروبا ، ومواضع وجوده في مختلف متاحفها وجامعاتها ، مع بيان مفصل للعمل الفني والعلمي في فك اللقائف وفحصها وتصنيفها ، وإيضاح للغاتها وخطها ومدادها وهندستها ، وتقييم لمادة الوثائق القديمة .

٥ - كتاب جروهمان عن علم البردى . ط براج ١٩٥٥ .

Grohmann, A. : Einführung und Chrestomathie zur Arabischen Papyruskunde. Praha. 1955.

٦ - مجموعة الرسائل المتبادلة بين « تيودور جراف ، ويوسف كراباتشك

والأرشيدوق راينر » . نشرها الدكتور هربرت هونجر في فيينا ١٩٦٢ .

Hunger. H. : Aus der Vorgeschichte der Papyrussammlung der Osterreichischen Nationalbibliothek - Briefe Theodor Grafs. J.V. Karabacek. Erzherzog Rainer. Wien, 1962.

وفيه نصوص للرسائل الهامة التي تروى قصة اقتناء النمسا لأكبر وأغنى مجموعة من البردى في العالم كله . والتمن الذي أخذه التاجر جراف من الأرشيدوق راينر لهذه المجموعة .

والكتب الأربعة الأولى لا توجد في المكتبات ، وإنما تستعار للقراءة من محفوظات ألبرتينا ، أما الكتب الثلاثة الأخيرة فوجدتُ نسخاً منها في مكتبات فيينا ودار الكتب القومية بها . ومن هذه السجلات والبحوث لعلماء البردى عرفت على وجه الدقة والتفصيل ، قصة العثور على كنوز البردى في أرض مصر ، والدول التي اشتركت في السباق عليه ، والقدر الذي تملكه منه متاحف الغرب وجامعاته ومعاهده ومكتباته ، إلى جانب ما يملكه هواة الآثار وعلماء المعصرات والاستشراق .

وتبدأ القصة من عام ١٨٢٤ حيث عثر بعض الفلاحين في منطقة سقارة على إيريقي صغير من الفخار فيه برديتان عربيتان ، ظفر بهما هاوى الأثرية المصرية « برناردو دروفيتي Bernardo Drovetti » قنصل فرنسا بمصر ، وبادر فقدمهما إلى البارون سلفستر دي ساسي Silvester de Sacy الذى اهتم بدراستهما كما درس معهما برديات عربية أهداها القنصل الإنجليزي Henry Satt إلى الملك لويس الثامن عشر .

ومضت عشرات من السنين ، دون جديد .

ثم عثر الفلاحون فجأة على أكوام من البردى في الخرائب المهجورة لأطلال مدينة «أرسنوحى» القديمة ، ومكانها الحالى : كوم فارس ، في صيف عام ١٨٧٧ ، وعرضت هذه المجموعة من البردى للبيع فاشتراها « ج . ترافرس G. Travers. » قنصل الرايخ الألماني في القاهرة وأرسلها من فوره إلى المتحف المصرى ببرلين .

في شتاء العام نفسه ، عثر سكان الفيوم على مجموعة ضخمة من البردى في خرائب « كوم الخراية » اشترى « ترافرس » أكثرها وذهب قدر منها إلى متحف اللوفر بباريس . وقدر آخر اشتراه «بورجنس ، وروجرز : القنصل الإنجليزي بالقاهرة » وانتقل بفضل جهود « شترن : Stern » إلى ملكية المتحف المصرى ببرلين ، في عام ١٨٨١ م .

في هذه الفترة كان المستشرق النمساوى «Karabacek, J.» قد انفتت إلى أهمية البردى عن طريق هوايته لفن النسيج الأثرى ودراسة السجاجيد الشرقية ، فحدث أن أرسل إليه من القاهرة ، مواطنه « تيودور جراف Theodor Graf » تاجر السجاجيد المشهور ، مجموعة من قطع النسيج الأثرية ، معها لفائف من البردى لم يكده « كراباتشك » يراها حتى قدر ما لها من قيمة أثرية لا تقدر بمال . وبادر فأرسل إلى « جراف » بالقاهرة يلفته إلى أهمية البردى ويطلب منه أن يسعى لجمعه وإرساله إلى فيينا . وبدأ دخول النمسا في السباق على كثر البردى من عام ١٨٨١ وكان « تيودور جراف » هو الذى قام بأكبر جولة في هذا السباق ، بمهارته وخبرته ومعرفته بمصر ، بعد إقامته بها سنوات عديدة مستشاراً لبيت تجارى كبير .

وبعدھا اتسع نطاق البحث عن البردى ، فشمّل أكثر مناطق الصعيد . وشاركت الدلتا مع ذلك في إضافة قدر من الذخائر ، حيث عُثر في القسطاط على برديات عربية من عصر الفتح ، وأخرى من العصر الفاطمي ، كما عُثر على قليل من لفائف البردى العربية قرب طنطا وفي كوم القلزم قرب السويس .

ولم يترك الأمر طويلا للصدفة ، بل شاركت بعثات أثرية وعلماء حفريات من أوروبا في هذا النشاط ، إلى جانب ما كان الفلاحون البدو يعثرون عليه بين الخرائب والأطلال . ومن أشهر العلماء الذين اشتغلوا بالبحث عن كتز البردى شفاينفورت Schweinfurth. (١٨٨٦) وجوجنت Jougnat (١٩٠٠) .

وعُثرت بعثة الحفريات الألمانية بإشراف روبنسون (١٩٠٢ : ١٩٠٥) على وثائق هامة ، ثم استأنفت نشاطها من مارس ١٩٠٨ بإشراف فيريك وتسوكر Viereck & Zucker في منطقة الأشمونين . وفي سنة ١٩١٠ عُثرت البعثة الألمانية برياسة شوبرت وتسوكر ، في عرب الكوم ، على برديات هامة ، وصكوك قبطية من القرنين السادس والسابع للميلاد .

وشارك الإيطاليون في الحفريات من عام ١٩٠٣ . واكتشف فيلكن وشوفر Willcken, V. & Schofer, H. أكوماً من البردى العربية في أبو صير الملق عام ١٩٠٤ . وقام جرنفيل وهانت B.P. Grenfell & Hunt A. بعدة حفريات ، في البهنسا من سنة ١٨٩٦ ، وفي الفشن عام ١٩٠٢ ، كشفت عن برديات عربية هامة . وعثر الإنجليز على كمية ضخمة من لفائف البردى الإغريقية . وشغلت البعثة الفرنسية البولندية بالحفر فقدمت نتائج أثرية هامة ، وبدأ المعهد الفرنسي للآثار حفرياته في إدفو عام ١٩١٤ ، ثم تعطلت بسبب الحرب العالمية إلى أن استؤنفت في ديسمبر ١٩٢١ بإشراف سان بولجيرار Saint Paul Girard. فعُثرت على برديات عربية هامة وعلى عقدين تجاريين على الرق ولوحات من الطين والخشب عليها كتابات عربية وقبطية . وظلت البعثات الأثرية تمارس نشاطها في البحث عن كتز البردى نحو نصف قرن . ففي عام ١٩٣٧ عُثرت بعثة جامعة وارسو بالاشتراك مع المعهد الفرنسي للآثار على سبع برديات عربية في أطلال إدفو ، ووثائق أخرى أثرية مدونة على الرق . كما عُثرت البعثة الإيطالية للآثار Missione Archologica d'Egitto

برئاسة الأستاذ فوليانو Vogliano في العام نفسه ، على مجموعات غنية من البردى الإغريقية والقبطية ، وبعض صكوك عربية للضرائب من القرن الثالث الهجري .

* * *

ولا تشير السجلات التي اطلعتُ عليها إلى مشاركة لمصر في هذا السباق الدولي على كتنها ، فيما عدا ما ذكره « جروهمان » في كتابه عن البردى العربية عن « تاجر عربي اسمه الشيخ حسن ، قام بحفريات خفية في منطقة الفشن بقصد السرقة » ثم لم يذكر جروهمان ماذا عثر عليه هذا السارق ، من آثار أجداده وكنوز أرضه ! وعلى مدى ذلك الزمن الطويل لنشاط البعثات الأثرية ، كان البدو والفلاحون يعثرون من حين إلى آخر على ذخائر من البردى أثناء بحثهم في الخرائب والأطلال والمقابر المهجورة عن بعض ما يتصفعون به للوقود أو السماد ! ومن أهم ما عثروا عليه ، كميات كبيرة من البردى العربية في الأشمونين حوالي عام ١٨٨٥ ضمَّ جزء هام منها إلى مجموعة النمسا ، والباقي تقاسمته مانشستر وهايدلبرج وهامبورج والمكتبة الخديوية بالقاهرة . وهذه المجموعات تكاد توازي مجموعات الفيوم من حيث العدد والأهمية التاريخية . وفي عام ١٩٠١ عثر فلاحو « كوم اشقاو » - وتقع على بعد ٧ كم من جنوب غربى طما - على كمية كبيرة من البردى في مقبرة إسلامية مهجورة خلف كنيسة القرية ، ولم يكونوا يقدرون قيمة هذه اللقائف فأحرقوا بعضها وقوداً وتركوا الباقي في مكانه . لكن عمدة القرية كان قد سمع تجار الآثار يسألون عن البردى ، أى بردى فأسرع إلى المقبرة وحمل ما استطاع منه ، كما حمل الخفير الذى كان يصحبه اللقائف . و آثار هذا التصرف ريبة في نفوس أهل القرية فطالبوا بنصيبهم مما عثروا عليه ، ولم يهدأوا حتى ظفر كل منهم ببعض اللقائف . وتسامع تجار الآثار بالحادث فأقبلوا من طما والاقصر وأخميم يسامون أهل القرية على شراء ما لديهم من البردى . ووصل الخبر إلى مفتش آثار « أبيدوس » فلجأ إلى مأمور طما الذى ذهب إلى كوم اشقاو مع قوة من جنود الشرطة ، أرهبت الفلاحين فسارعوا إلى إخفاء ما لديهم أو إحراقه ، خوفاً من العقاب ! ولم يسفر التفتيش عن نتيجة ، وأقامت الشرطة حراسة على المنطقة . وبدأ الحفر فيها بإشراف العالم الأثرى كويبل J.E. Quibell . واستمر ثمانية عشر يوماً ، فكان كل ما عثر عليه ثلاث برديات وبعض لقائف الرق

القبلى والإغريق، وبعد مضي بضعة أشهر ظهرت "مجموعة كوم إشقاو" التي أخفاها أهل القرية، لدى تاجر بالقاهرة، واستطاع الأستاذ موريتس Moritz أن يشتري قدرًا كبيراً منها. باع بعضها لدار الكتب الخديوية - وكان مديراً لها - واحتفظ بأكثرها لمجموعته الخاصة. كما وصلت لفائف من بردى كوم إشقاو إلى برلين وهایدلبرج ولندن وشراسبورج وموسكو، فضلاً عما اشتراه بعض العلماء أمثال مونستر وتاشنر, Munster & Taschner من ذخائر المجموعة.

(٢)

مصير البردى

على هذا النحو كان السباق الدولي على ذخائر تراثنا من البردى . وقد استغرق نحو قرن من الزمان على مرحلتين :

الأولى : من عام ١٨٢٤ حين عثر بعض فلاحي سقارة على إبريق من الفخار فيه لفافتان من البردى العربية - أهداهما القنصل دروفيتي إلى ملك فرنسا - إلى عام ١٨٧٧ حين عثر سكان الفيوم على مجموعة كبيرة من البردى الرائعة . وهي التي اشتراها القنصل الألماني « تراقرس » لحساب المتحف المصري ببرلين .

وفي هذه المرحلة الأولى ، كان أمر العثور على البردى متروكاً للمصادفات : فتحت ضغط الفقر والحاجة ، كان الفلاحون يتقنون فيما حول قراهم من خرائب وأطلال ، التماساً لبعض السهاد والوقود ، أو بغية العثور على ما يمكن أن يرجي منه أى نفع . وبين حين وآخر كانت تقع لأحدهم سلال أو قدور قديمة مليئة بلفائف البردى المثقلة بالطين ، فيطرحها بإهمال أو يلقي بها حطباً للنار .

ولا يدرى أحد على وجه التحقيق ، كم من هذه الودائع تلف وضاع ، قبل العثور سنة ١٧٨٠ على "مجموعة دمياط" التي أحرقت بأمر مشايخ القاهرة ، لاحتمال أن تكون بها نصوص من الكفریات التي لا تحل مطاعتها في ديار الإسلام .

وهنا تبدأ المرحلة الثانية : فعلى وهج النار التي ألهمت مجموعة دمياط ، التفتت أوروبا إلى هذا الكنز الذي هان على أهله . وبدأ عملاؤها الذين كانوا يجوسون خلال الديار بحثاً عما تطوى أرضها من آثار ، يلتمسون البردى ويتسابقون على البحث عنه ويتنافسون على شراء ما يقع منه لتجار الآثار أو الفلاحين أو البدو . وامتدت هذه المرحلة إلى قرب منتصف القرن العشرين ، وفيها نشط البحث عن البردى واشتركت فيه بعثات الحفر الأثرية الأوروبية ، إلى جانب نشاط علماء الآثار وقناصل أوروبا وتجارها وعلمائها في تتبع ما يعثر عليه أبناء البلد من البردى

وكان أكثر النشاط موجهاً إلى الفيوم والوجه القبلى بحكم جفاف المنطقة وقدرتها على الاحتفاظ بمثل هذه الودائع . فانتشرت بعثات الحفر وطلاب البردى تفتش فى أطلال الفيوم ومنف والأشمونين والبهنسا وأهناسيا وأخميم وأسيوط وإدفو وطما والنوبة . واتجه بعضها إلى القسطاى والدلتا وكوم القلزم قرب السويس . ولم تنته هذه المرحلة ، قبل منتصف هذا القرن ، إلا بعد أن تسربت ذخائر العرب من بلدنا وتقاسمتها دول الغرب من شيكاجو إلى ليننجراد ، ومن فلورنسا إلى أوصلو .
وفىما يلى بيان لإحصائى لمصير البردية المصرى ، نقلاً عن سجلات ألبرتينا ودليل كراباتشك وأحدث كتاب للدكتور جروهمان :

أوربا

النمسا :

تمتلك فيينا "مجموعة الأرشيدوق راينر" المودعة فى خزائن ألبرتينا بالمكتبة القومية . وسأفرد لها حديثاً خاصاً فى هذا التقرير لأهميتها وخطورها ، ولأنها كانت موضع دراسى فى المهمة العلمية التى أوفدت لها .

وفى إنسبروك Innsbruck مجموعة من مائة وأربع برديات اقتنتها الجامعة عن طريق جروهمان ، وفيها برديتان من الأشمونين . أما الباقى فما عثر عليه فى القسطاى وقرب طنطا ، على ندره ما أعطى الوجه البحرى من هذه الذخائر .

ألمانيا :

فى برلين : مجموعة المتحف المصرى هناك . وكان يقتنى عدداً لا بأس به من البردى قبل أن يظفر بالصفقة التى اشتراها ترافرس Tracvers. عام ١٨٧٧ من بردى الفيوم والبهنسا . ثم أضيف إليه ما اشتراه القنصل روجرز Rogers والأستاذ بورجتش Burgsch ، والقنصل شميت Schmidt والدكتور بوك Boock . وأصلها من الفيوم . وفى عام ١٨٨٦ اشترى شتادر Stader مجموعة من البردى كان

المهندس Stern. يملكها واقتناها المتحف كما اقتنى ما عثر عليه الأستاذ شقايبنفورت Schweinfurth من منطقة الفيوم وأهناسيا . وتبع ذلك شراء مجموعة بورجسن وما عثرت عليه بعثات الحفر الألمانية في الأشمونين (١٩٠٥) والنوبة وجزيرة فيسليه وأسيوط (١٩١٠) وفي عام ١٩٥٢ قام الأستاذ شوبرت Schubert المشرف على مجموعة البردى في متحف برلين برحلة إلى مصر ، فاستطاع شراء ١٢٧ بردية قيمة من بردى الفيوم وأهناسيا والأشمونين . وتلقى المتحف عام ١٩٢٨ سبعاً وعشرين بردية أرسلها بيكر Becker .

وفي متحف الخط ببرلين أيضاً مجموعات خاصة ، أشهرها مجموعة الدكتور إيبشر. Ibscher. وأصلها من الأشمونين . ومجموعة يوليوس كورت Kurth, J ومجموعة شميت Schmidt. .

وفي مدينة جيسن Giessen: توجد مجموعة بردى Jand. في المعهد التحضيري للدراسات اللغوية بجامعة لودفيج . كما يمتلك المتحف التاريخي في المدينة ثمانى قطع عربية من الفيوم والأشمونين .

واقنتت جامعة هامبورج عام ١٩٠٧ وثائق من البردى المصرى الإغريقى . ثم بدأت بعد عامين تهتم بالبردى العربى بإلحاح من الأستاذ بيكر . واستطاعت فيما بين عامى ١٩١٠ : ١٩١٢ أن تظفر بنخائر من بردى الفيوم والبهنسا والأشمونين وأدفو وأسوان ، فوصلت المجموعة عام ١٩٣٨ ، إلى مائة وثلاثين بردية ، أشرف الأستاذ « إيبشر » على فكها وصيانتها بين ألواح من الزجاج .

واقنتت مكتبة جامعة هايدلبرج عام ١٨٩٧ مجموعة من بردى الفيوم وأخميم والأشمونين ، اشتراها الدكتور راينهارت Reinhardt ؛ معظمها مكتوب بالعربية وقليل منه بالعبرية . وبعد أعوام ظفرت الجامعة بالمجموعة الخاصة بالدكتور راينهارت وعددها ألف بردية أكثرها باللغة العربية ، وجزء منها باللغات القبطية والسوريانية والإغريقية والفهلوية. وكانت المجموعة قد آلت سنة ١٩٠٣ بعد وفاة الدكتور راينهارت— بوصية منه — إلى صديقه شوت Schott مدير جامعة هايدلبرج الذى قدمها بدوره هدية إلى الجامعة فأطلقت عليها اسم ” بردى شوت — راينهارت : Sohott — Reinhardt “ تحيةً ذكري وتكريم لمن جمعها ومن أهداها . وأصل المجموعة

من بردى أهناسيا وكوم إشقاو وأخيم والفيوم والأشمونين . وقد نمت بعد ذلك بما أضيف إليها من نتائج حفريات مجمع هايدلبرج والجمعية العلمية في فرايبورج عام ١٩١٤ ، إلى جانب تسع وخمسين بردية عربية من القسطنطينية ، جاء بها الدكتور جروهمان . وتولى عدد من المستشرقين الألمان فحص البردى العربي في مجموعة هايدلبرج ، منهم الأساتذة بيكر وسايدل وبيلابيل Becher, Seidl, Bilabel .

وفي مكتبة جامعة لايبزج مجموعة ثمينة من بردى الفيوم ، جاء بها الأستاذ لوث Loth من القاهرة عام ١٨٧٩ . مع مقدار آخر أرسل إلى برلين .
وفي ميونيخ تفتنى المكتبة البافارية تسع برديات عربية وبردية لإغريقية عربية . كما يوجد في مكتبة مونستر عدد من البرديات العربية اشتراها « الأستاذ تاشنر » من القاهرة . ومنها ما يرجع إلى القرن الثالث الهجرى ، ولم ينشر منها شئ ، وإن كانت قد فُكَّتْ وحفظت بين ألواح من زجاج .

بريطانيا

في كمبردج : نص سحرى ، عربى قبطى — لعله تيمية أو حجاب — مودع بمكتبة الجامعة وقد نشره كروم وكراب : Crum, W. & Krapp, A. .
وفي لندن : بالمتحف البريطانى ، مجموعة صغيرة قيمة من البردى والرق العربى أصلها من سقارة والفيوم والأشمونين ، إلى جانب مجموعة من نصوص المراسيم والصكوك من بردى الأشمونين وكوم إشقاو . وقد شارك في فحصها ودراستها : جروهمان وكروم وبيكر وبل وبيلابيل .

وفي مانستر : يحتوى كتر المخطوطات الشرقية الذى تملكه مكتبة جون رايلاند : John Ryland's Lib. على مجموعة ثمينة من ستمائة بردية عربية أكثرها من الأشمونين . وكان « إيرل كراوفورد : Earl Crowford » قد اشتراها من مصر عام ١٨٩٩ وحملها إلى قصره في أسكتلندا فاشترتها مكتبة جون رايلاند سنة ١٩٠١ . وكانت هذه المجموعة جزءاً من مجموعة كبرى من بضعة آلاف بردية اشتراها كارلو جراف لاندبرج Carlo Graf Landberg سنة ١٨٩٨ وذهب أكثرها إلى مجموعة الأرشيدوق رانر

في فيينا . ويعتقد : « جروهمان » أن المجموعتين تكمل إحداهما الأخرى ، وقد نشرت مختارات من مجموعة كراوفورد ، عام ١٩٠٩ بمعرفة كروم ومرجليوث .
وفي عام ١٩٣٣ نشر مارجليوث الكتالوج العبري ، وفيه وصف لثلاثمائة وأربعين بردية مع ترجمة لبعضها .

وفي أكسفورد : تفتنى مكتبة البودليانا Bodliana مجموعة غنية من البردى بينها أربع وتسعون بردية عربية بدأت بما جاء به شستر Chester من بردى الفيوم ما بين عامي ١٨٧٨ و ١٨٨٤ ، ثم تلتها مشتريات المستشرق دى ساسى De Sacy عام ١٨٨٨ وكانيبيرا Canybeare عام ١٨٩٦ وبيترى Petrie عام ١٩٠٨ ، ١٩٠٩ ثم دى ساسى مرة أخرى عام ١٩٣٣ ، وفيها ست عشرة بردية مما عثر عليه في كوم إشقوا ، وأحدثها مؤرخة في سنة ٣٢٩ هـ .

ولم ينشر من مجموعة أكسفورد سوى أربعة نصوص بمعرفة مارجليوث ، منها خطابان عربيان نشرهما سنة ١٨٩٣ ، ونصان عربيان - إغريقيان نشرهما عام ١٨٩٧ ويرجع تاريخهما إلى عام ٧١٩ م ، وإن كان النص العربي فيهما مطموساً .

فرنسا

تتكون مجموعة متحف اللوفر بباريس من ثلاثمائة وست برديات عربية لم ينشر منها شيء حتى الآن . وأكثرها جاء من الفيوم .

وفي مخطوطات المكتبة القومية Bibliothque Nationale اثنتان وعشرون بردية عربية ، منها البرديتان اللتان أهداهما دروفيتى Drovetti. B. إلى ملك فرنسا ، وأصلهما من سقارة ، وقد نشرها دى ساسى .

وفي ستراسبورج : اقتنته الجامعة والمكتبة مجموعة جميلة من البردى ، بفضل جهود Spieglberge, Reitzenstein & Preisighen « وقد نمت تباعاً بما أضيف إليها مما اشتراه مايرهوف Meyerhof, M. ، وراينهارت Reinnardt ، وبوركارت Borchardt . وتضم المجموعة إحدى عشرة بردية عربية - قبطية ، وثلاثاً إغريقية - عربية ، وسبائة وثمانين بردية عربية .

كما تمتلك جمعية ستراسبورج العلمية ثلاثاً وعشرين بردية عربية ، وقد نشر « بيكر » اثنتي عشر بردية عربية إغريقية ، أصلها من كوم إشقواو بطما .

إيطاليا

في معهد البردي بفلورنسا ، عدد من البردي العربية عهد بدراستها إلى المستشرق ليفي ديلافيدا Levi della Vida . وفي المعهد أيضاً مجموعة من البردي الرابع باللغتين الإغريقية واللاتينية .

وظفرت ميلانو بمجموعة من البردي العربية ، جاء بها فوليانو أثناء رياسته لبعثة الحفر الإيطالية بمصر ، وأضيفت إليها بعد ذلك كمية أخرى ، لا يعرف عددها .

تشيكوسلوفاكيا

في المعهد الشرقي بمدينة براج "مجموعة فيسيللي C. Weselly" الثمينة المكونة من ٨١٨٢ قطعة ، منها ٨٩٧ بردية عربية . وكان فيسيللي قد اشتراها عام ١٩٠٤ من تاجر أرمني في باريس ، وآلت بعد وفاة فيسيللي بوصية منه إلى الأستاذ هوفنر Hopfner, Th. في براج فباعها في يونيو ١٩٣٤ إلى المعهد الشرقي . ومن هذه المجموعة نشر جروهمان ستة وتسعين نصاً ، فيما بين عامي ١٩٣٨ ، ١٩٤٣ وأكثرها - على الأرجح - من الفيوم والأشمونين .

الاتحاد السوفييتي

توجد ثلاث مجموعات : واحدة في موسكو ، يقتها متحف الفنون الجميلة وقد جمعها جوليتتشف V.S. Goleniscev من مصر عام ١٨٨٨ ، ١٨٨٩ منها نحو مائة بردية عربية ، وبعض البرديات العربية والإغريقية ، والقبطية .

ومجموعتان في ليننجراد ، أولاهما مجموعة ليشاكوف N. Lichacov التي اشتراها من القاهرة وفيها عدد من بردى كوم إشقاو ، والأخرى في المجمع العلمي في ليننجراد - المتحف الباليوجرافي سابقاً - وفيها مائة صك نشر بعضها بمعرفة برييلكين Berepelkin عام ١٩٣٦ في دليل « معرض الخط في العصور القديمة والوسطى » .

أما مجموعة موسكو فلم ينشر منها شيء . وكان كراتشكوفسكى Krackovskij وبارتولد Bartold قد مهذا للبحث العلمي نصوص على البردى العربية قبل الثورة . لكن لم يتم العمل . وفي عام ١٩٣٤ أدخل « معهد الكتاب » في برنامج عمله ، البحث عن البردى العربي ودراسة مجموعتي ليننجراد ومجموعة موسكو ، ولم تنشر نتائج هذا العمل ، فيما أعلم .

بولندا

اقتنت جامعة وارسو عام ١٩٣٣ تسعاً وأربعين بردية عربية من الفيووم أهداها إليها الأستاذ شमित . ثم أضيف إليها بعد ذلك ، ما جاءت به بعثة حفريات الجامعة بالاشتراك مع المعهد الفرنسي للآثار بالقاهرة ، عام ١٩٣٧ . وتوجد في مجموعة بردى "المعهد التحضيري للغويات" بالجامعة ، أربع برديات عربية منها ثلاث رسائل .

• • •

وحرصت دول أوربية أخرى - لم تشترك في السباق على البردى - على اقتناء بعض نماذج منه :

في سويسرا :

يوجد في متحف أراو Arrau الطبيعي عدد من وثائق البردى يعتقد أن تشوكر Zschokker جاء بها من القاهرة في أخريات القرن التاسع عشر ، ووضعت في متحف الجمعية التجارية ، ثم آلت إلى المتحف الطبيعي .

وفى الرويح :

توجد فى مكتبة جامعة أوصلو مجموعة من البردى المصرية نحو مائتين إلى ثلاثمائة
جاء بها الدكتور أيتشرم .S.Eitverm. من القاهرة .
وفى المتحف العثمانى بالقسطنطينية "تركيا" بردية عربية من كوم إشقوا ،
نشرها بيكر .

أمريكا

اقتنت جامعة ميتشجان سنة ١٩٣١ مجموعة من البردى المصرية ، فيها خمس وستون
بردية عربية . ثم أضيفت إليها عام ١٩٣٢ مجموعة أخرى من أجمل البرديات ،
أصلها من الأشمونيين ، وقد اهتم الاستاذ واريل Worell بدراسة هذه المجموعة
المصرية من البردى والرق والمخطوطات التى جمعها مورتس B.Mritz خلال إقامته
الطويلة بمصر مديراً لدار الكتب الخديوية ، وعندما رحل عن مصر حملها معه ثم باعها :
وبعد سنتين اشترت الجامعة سبعين بردية عربية عن طريق الأستاذ بونر
Bonner . وفى أعمال سريعة متلاحقة نشر أبوت Abbott ثلاث عشرة بردية عربية
من تلك المجموعة ، منها رسائل من القرن الأول الهجرى (٩٠ ، ٩١ هـ) ونصوص
عن أديرة الفيوم ، ووثائق من عهد الخليفة المتوكل على الله ، وعقدان من عقود
الزواج العربية .

البلاد العربية

مصر :

لم تظفر مصر من كثرها الذي تقاسمته دول الغرب ، بغير مجموعتين في القاهرة أولاهما في دار الكتب وعددها نحو ألف بردية ، ويرجع الفضل في تأسيس المجموعة إلى الأستاذ «موريتس» ، الذي كان مديراً للدار من عام ١٨٩٦ إلى ١٩١١ فاشترى لحسابها بعض القطع ، مع ما كان يشتريه لمجموعته الخاصة . ثم جاءت بعض القطع هدية إلى الدار ، وأضيف إليها ما اشتراه ميشيل كازيرا Michel Casira من بردى الفيوم والأشمونين في الأعوام من ١٩٠٢ إلى ١٩٠٥ .

وفي فبراير ١٩٠٦ ، ضم إلى المجموعة عدد من نادر البردى كان في حوزة مصرى من الجيزة اسمه « الشيخ على » فبلغ رصيد الدار من البردى في عهد « موريتس » ألف قطعة زادت بعد ذلك بما أضيف إليها من بردى الفيوم والأشمونين والبهنسا وكوم اشقاو وأدفو والدلتا .

«موريتس» هو الذى قام كذلك بإعداد المجموعات في صالة العرض ، وقد استكمل معرض البردى بعد ذلك في عام ١٩٣٩ وشارك الدكتور إيبشر Ibscher. في صيانه وإعداده ، وكان من المقرر طبع دليل عن مقتنيات الدار من البردى عام ١٩٣٩ ولكن الحرب حالت دون ذلك .

ونشر عن هذه المجموعة مقال لموريتس عام ١٩٠٥ ، وآخر في مادة الخط العربى بدائرة المعارف الإسلامية . وثالث في الجزء الخامس من حوليات الإسلام لكياتانى ، Annali dell Islam. وأعاد بيكر نشر القطع التى نشرها موريتس ، مع ترجمة وتعليق ، بعد إقامة قصيرة في القاهرة عام ١٩١١ . ثم كان جروهمان هو الذى اشتغل بدراسة مجموعة دار الكتب فنشر بمعاونة موريتس عام ١٩٢٤ ثمانية نصوص ديوانية «مراسيم» ثم وضع برنامجاً لنشر المجموعة فظهر الجزء الأول عام ١٩٣٤ وفيه اثنان وسبعون مرسوماً ديوانياً ، والجزء الثانى عام ١٩٣٦ وفيه ثلاثة وسبعون

صكاً رسمياً أيضاً ، والجزء الثالث عام ١٩٣٩ وفيه ٦٩ نصاً من الديوانيات ، وأعد للنشر الجزء الرابع وفيه ٧٤ نصاً ، والخامس والسادس وفيهما ١٧٤ وثيقة من تاريخنا الاقتصادى ، ويختص الجزء السابع بصكوك الضرائب ، والثامن بالرسائل والأدب . وترك لدار الكتب نشر هذه الأجزاء خدمة لتراثها الوطنى . وفى عام ١٩٣٤ نشر جروهمان محاضرة عن "بردى دار الكتب" كان قد ألقاها فى الجمعية الجغرافية المصرية عام ١٩٣٢ .

والمجموعة المصرية الثانية موجودة فى المتحف المصرى بالقاهرة . وأغلبها قبلى لم ينشر عنها إلا بحث للمستشرق كازانوفنا P. Cassanova . كما نشرت بعض نصوص عربية كانت ضمن صكوك قبطية ، من ترجمة سلان Slanes وطبع جياسكو بعض هذه النصوص سنة ١٨٨١ .

وبالإضافة إلى مجموعتى دار الكتب والمتحف المصرى ، تقتنى دار الآثار العربية رقين من جلد الغزال عليهما عقدان تجاريان وبعض البردى من حفريات الفسطاط وإدفو ، مما عثرت عليه بعثة المعهد الفرنسى للآثار بالقاهرة ، وذكر جروهمان أن بالقاهرة عدداً من المجموعات الخاصة أهمها مجموعة ميكاليدس G. michaelides ، ومجموعة مايرهوف ، ومحمد على سعودى بعين شمس (؟) .

* * *

وفى عدا القاهرة لا تشير سجلات البردى بقيينا إلى وجود شىء منه فى الأقطار العربية ، عدا مجموعة أستاذنا « حسن حسنى عبد الوهاب » بتونس ، كما لا تشير إلى أى أثر للبردى فى الشرق الآسيوى الإفريقى .

(٣)

مجموعة راينر في ألبرتينا (مكتبة فيينا القومية)

وأحدث الآن عن مجموعة فيينا وهي أكبر وأغنى مجموعة من البردى المصرية في العالم كله . وقد استطعت من مطالعتي للوثائق والسجلات الخاصة بها في محفوظات ألبرتينا أن أتبع القصة المثيرة من أولها ، حيث يتكرر المشهد بصورة أو بأخرى فيما آل إلى بقية الدول الغربية التي اشتركت في السباق على الظفر بودائع هانت علينا من تراث أجدادنا .

والغريب أن النمسا لم تتجه إلى الاشتراك في السباق على البردى منذ بدأ في أوائل القرن الماضي ، بل لأنها حين بلغ السباق ذروته في الربع الأخير من ذلك القرن ، كانت لا تزال زاهدة فيه منصرفه عنه . وفي الوقت الذي تنافس فيه قناصل ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا على شراء ما يُعرض من البضاعة في أسواق القاهرة والصعيد ، وقف قنصل النمسا بمعزل تماماً عن السباق كله ، وترك زملاءه الآخرين يتقاسمون الغنيمة . بل إن العالم النمساوي المستشرق « كراباتشيك » والتاجر « تيودور جراف » اللذين كسبا للنمسا مجموعتها الكبرى . لم يهتما بالبردى في بادئ الأمر ، وإنما كان أولهما مشغولاً بهوايته لفن النسيج الشرقى وكان الآخر مشغولاً بتجارة السجاجيد ، يحمل منها إلى فيينا روائع القطع الأثرية النادرة في رحلاته التجارية إلى مصر ، حيث أقام سنوات طويلة مستشاراً لبيت تجارى كبير في الإسكندرية ، ومن هنا نشأت الصلة الوثيقة بين تاجر السجاجيد وبين المستشرق الهاوى للمنسوجات الأثرية ، فكان جراف يربط كل رحلة تجارية إلى مصر ، بالغرض العلمى الذى يهـم صاحبه . واستطاع قبل الثورة العربية أن يرسل إلى فيينا مجموعة نادرة من السجاجيد الشرقية لم تشهد عاصمة النمسا لها مثيلاً من قبل .

وبلغ من اهتمام « كراباتشك » بهذه البضاعة الأثرية أن أغرى « جراف »

بالخفر في المناطق الجافة بالصعيد عن مقابر العصور التي تلت عصر الفراعنة. بمصر ،
 أملاً في العثور على خرق من النسيج في عهد الإغريق والرومان ، وكانت مفاجأة
 لكاراباتشيك أن بعث إليه صاحبه ، في عامي ١٨٨١ ، ١٨٨٢ م بعض خرق
 البردى ضمن مجموعة من قطع النسيج القديمة . ومن هنا بدأ اهتمام « كاراباتشيك »
 بالبردى المصرى ، وبدأت في الوقت نفسه قصة المجموعة الثمينة التي تعدها النمسا
 اليوم ، من أجد ماثرها على تاريخ الحضارة ، فما كادت البرديات تصل إلى العالم
 المستشرق حتى لفت صديقه التاجر إلى أهمية هذه الخرق ، وألح عليه في بذل أقصى
 الجهد للظفر بأكبر قدر منها .

ولم يكن للقناصل الأوربيين الذين جندتهم دؤلم للسباق على الكنتز قبل تنظيم
 البعثات الخيرية ، من الخبرة بالسوق والصلة بأبناء البلد ، مثل ما لهذا التاجر الخبير
 الذى لم يكده يدخل الميدان حتى خرج من الجولة الأولى بمجموعة من لفائف بردى
 الفيوم وأهناسيا مقدارها عشرة آلاف بردية ، ظهر بعد الفحص أنها مكتوبة
 بست لغات ، ومنها ثلاثة آلاف بردية عربية ! وعرفت برديات هذه الصنفقة في
 الدوائر العلمية في أوروبا بمجموعة "جراف أو مجموعة الفيوم الأولى : Der erste
 Fayumer Fund" .

وتلقى « كاراباتشيك » هذه البضاعة وهو لا يكاد يصدق أنها صارت إليه ،
 لكنه حين حاول فحص نصوصها. وجد البرديات في حالة تعسة ، فإلى جانب
 ما تأكل منها وعبث به الدود ، كانت هناك ألوف من اللفائف المتحجرة لطول المدى
 على طيها ، مع ما تراكم فوقها من الطين الجاف ، ومنها ما كان مربوطاً بخيوط من
 الصوف أو ما كان مخيطاً من أحد جوانبه على هيئة كراسات . وكانت محاولات
 فكها تعرضها للتمزق والتلف ، ما لم تبذل عناية تامة لإزالة الطين منها وتطريتها ،
 كى يمكن فردها وفحصها . وكان المعروف أن قدراً هائلاً مما عثر عليه البدو
 والفلاحون في خرائب الصعيد قد تلف تماماً عندما حاولوا فك اللفائف بغمرها في
 الماء . من هنا اتجهت محاولة « كاراباتشيك » أول الأمر إلى تطرية اللفائف شبه
 المتحجرة بتعريضها لبخار الماء الساخن ، لكنه ما لبث أن عدل عن هذه الطريقة
 التي طمست بعض النصوص ، إلى طريقة التطرية الباردة التي جربها الألمان بنجاح

في صفقة « القنصل ترافرس سنة ١٨٧٧ » .

وبعد عمل شاق متواصل وجهود مضية أمكن فك اللغائف المتلوية وفتح الكراسات الملتصقة .

وكشف الفحص السريع لما تم تنظيفه وتطريته ، عن وجود نصوص ذات أهمية لا تقدر ، فكانت الخطوة الثانية ، تصنيف برديات المجموعة ، في فئات متجانسة لغة أو متقاربة زمنياً أو متكاملة قطعاً ونصاً . واقتضى تعدد لغاتها الاستعانة بعلماء في اللغات العربية والسامية والفارسية والفهلوية والقبطية واليونانية ، وكلما تم تجهيز إحدى البرديات وضعت بعناية في إطار بين لوحين من الزجاج برقم مسلسل .

* * *

وتقدم العمل بفضل الجهود المتآزرة مع الخبرة الفنية والعلمية بحيث أمكن إعداد مئات من البرديات التي تم فحصها وتنسيقها ، وأقيم لها معرض في السابع والعشرين من مارس ١٨٨٣ بالمتحف النمسي للفنون . وألقي « كاراباتشيك » في حفل الافتتاح محاضرة عن قيمة هذه الوثائق وأهميتها والنتائج الأولى لبحوثه وبحوث زملائه من العلماء كما قدم ثمرة العمل في دليل مفصل مطبوع .

ولكن المتحف النمساوي لم يبد مع ذلك رغبة ما في شراء هذه المجموعة الثمينة واقتنائها . وعبثاً حاول « كاراباتشيك » أن يقنعه بضرورة شراؤها ، وخاصة بعد أن تخرج الموقف : فالتاجر « جراف » قد دفع ثمنها من ماله الخاص ، وقد طال انتظاره للبت في موضوع شراء النمسا لها ، في الوقت الذي تعرض فيه لضغطٍ إلحاحٍ شديدٍ ومساومةٍ مرهقةٍ من بعض الدول الأوروبية ، وبخاصة ألمانيا التي أبدت استعدادها لشراء المجموعة بالثمن الذي يرضيه .

وبدا كأن النمسا توشك أن تفقد ما وصل إلى عاصمتها من كنز البردى ، لولا أن سعى كاراباتشيك لدى « الأرشيدوق راينر » - راعي المجمع العلمي في ذلك الوقت - ونجح المسعى فدفع الأمير ثمن المجموعة كلها . وأبقاها باسمه في متحف فيينا ، ثم أضاف إليها المجموعة التي اقتناها « كرال » أثناء مقامه بمصر سنة ١٨٨٢ كما آلت إلى « راينر » بعد ذلك مجموعة العالم الأثري « شفانيفورت

Schweinfurth. « التى عرضها للبيع فى سوق القاهرة سنة ١٨٨٦ ، ونجح التاجر جراف فى شرائها . وهى التى تعرف "بمجموعة الفيوم الثانية Der zweite Fayumer Fund".

وظل الرصيد ينمو بما أضيف إلى مجموعة جراف مما كان جراف وغيره يرسلونه إلى فيينا ، من جديد ما يعثر عليه من لفائف البردى المصرية ، ومنه كتاب الموتى Totenbuch الذى جاء به هاينريش Heinrich ، ومخطوطات من هوميروس جاء بها فيسلى Wessely فضلاً عما اشتراه العالم الأثرى جراف لاندبرج Graf Landberg الذى كان يقوم إذ ذاك بحفريات فى الجنوب العربى موفداً من مجمع فيينا للعلوم . وقد ألح عليه زميله كاراباتشيك أن يمر بالقاهرة لشراء ما يمكن شراؤه من البردى فاستجاب لاندبرج لرجاء زميله ومر بالقاهرة فى خريف عام ١٨٩٨ ، وقد تم فى هذا العام شراء آلاف من بردى الأشمونين تمتاز بدقتها وتفوقها ولونها البنى الفريد . وكانت كل المشتريات تم لحساب الأرشيدوق راينر Erzherzog Rainer وتضاف إلى مجموعته التى بقيت فى متحف الفنون بين أيدي الخبراء والدارسين .

* * *

وقبل أن تلتفت مصر إلى تسرب هذا الكثر من أرضها ، كانت "مجموعة راينر" قد بلغت نحو سبعين ألف بردية ! وفى أغسطس ١٨٩٩ قدمها الأمير إلى مكتبة البلاط الإمبراطورى ، هدية عيد الميلاد للقيصر « فرانز جوزيف Franz Josef » وكان كاراباتشيك قد عين مديراً للمكتبة قبل ذلك ، حيث عاش ما بقى من عمره متفرغاً للمجموعة ، ينميا ويرعاها ويفحصها ويدرسها بمعونة عدد من العلماء والخبراء ، إلى أن مات فى التاسع من أكتوبر ١٩١٨ وبقيت المجموعة من بعده فى مبنى ألبرتينا بمكتبة فيينا ، ذخيرة قومية غالية ، ومزاراً للعلماء والسائحين من أنحاء العالم الغربى المعاصر .

وكل هذا الذى أشرت إليه من مجموعة بردى فيينا ، لم يكن شىء منه مجهولاً للمستشرقين وعلماء المصريات ومؤرخى الحضارة من الغربيين ، فنذ عام ١٨٨٣ تابعت المنشورات من البحوث والوثائق كاشفة عن قيمة هذا الكثر ومحصية ذخائره ومعلنة عن أشخاص الأبطال الثلاثة الذين كسبوا للنمسا أكبر جولة فى السباق

وجعلوا من فيينا العاصمة الأولى لدراسة البردى . لكن بقي وراء هذا المعلوم من القصة ، أسرار خفية لم يكن أحد يدري بها سوى أولئك الثلاثة ، حتى ظهر كتاب هربرت هونجر H. Hunger في فيينا ١٩٦٢ فأذاع كل الأسرار المطوية بنشر نصوص الرسائل التي تبودلت بين تاجر السجاجيد تيودور جراف ، والمستشرق يوسف كاراباتشيك ، والأرشيدوق راينر . وتبدأ الرسائل من عام ١٨٨١ حيث بدأ كاراباتشيك يبحث صديقه العزيز « تيودور جراف » على البحث عن البردى في خرائب الصعيد وأطلال الفيوم ، دون أن يكون للتاجر خبرة بقيمة البضاعة المطلوبة والثمن الذي يجوز لمثله أن يدفعه . ومن القاهرة بعث « جراف » إلى صديقه الأستاذ خطاباً مؤرخاً في ١٨٨١/٣/٨ جاء فيه (١) :

« . . . بعد رسالتي الأخيرة التي طلبت فيها نصيحتكم بخصوص شراء السجادة الدمشقية القديمة ، يسرني أن أبلغكم اليوم أن بحثي عن قطع البردى انتهى بنجاح ، وإن تكن قطعاً صغيرة . ولعل قيمتها في أنها مكتوبة بعدة لغات من أقدم العصور . ومن الصعب على أي حال العثور على لفائف كبيرة سالمة من الضرر . وأنا أتابع في الوقت الحاضر البحث بحماس مع الأمل في النجاح . وقد أرسلت إليكم هذه القطع بالبريد المسجل وأمل أن تعبرني قريباً عما إذا كان لها قيمة ؟ وما قيمتها ؟ وهل أستمّر في إرسال القطع الصغيرة إذا لم أوفق في العثور على لفائف كبيرة ؟ »

« الواقع أني لا أدري هل تستحق هذه القطع المرسلّة إليك ما دفعته فيها من ثمن ؟ وسوف أسافر إلى أسويط بعد ثلاثة أيام أو أربعة ، ولعل أعود من رحلتي بنتائج طيبة . . . » .

ومن فيينا جاء رد « كاراباتشيك » مؤرخاً في ١٨٨١/٤/٩ :

« . . . والآن إلى البردى ! كنت على حق إذ أرسلت هذه اللفائف الصغيرة ، ففيها قطع جميلة لا يزال خطها واضحاً جديداً ، وبعض هذه القطع كاملة . ومنها صلح من عام ١٦٢ هـ (٧٧٩ م) وفي الجزء الأخير منه ، صيغة كاملة وردت مبنورة في بردية أخرى بتاريخ ١٨٠ هـ ، ولم يكن من المستطاع إكمالها لولا الظفر

(١) الترجمة العربية لهذه الرسائل ، لابنتي « أدبية أمين الخويل » عن النص الألماني في كتاب هونجر

بالصيغة نفسها تامة ، في هذه البردية التي أرسلتها مع الدفعة الجديدة . ومع سرورى البالغ بجمال هذه القطع وقيمتها ، لا أزال ألح في طلب مزيد منها ، فإن قطعة صغيرة من صلك^١ أو وثيقة ما ، يمكن أن تضيء لنا ما ظل غامضاً علينا لمدى طويل . واكتب لي في خطابك التالى بياناً عن حالة الأختام على اللقائف ومدى سلامتها . . .

« وعشرون فرنكاً للقطعة قد تبدو غالية . لكن سوف نرى . وعلى أى حال لن تصاب بخسارة ما ، ولى رجاء : تجد على زاوية الصفحة الأخيرة من خطابى ، ثلاث عبارات عربية ، لها دلالة خاصة في العربية ، وتستطيع أن تستفسر لي من بعض أصحابك العرب ، عما إذا كانت لا تزال مستعملة إلى اليوم بدلالاتها القديمة ؟ وثق أنني سوف أدين لك بكثير إذا ما قمت لي بهذه المهمة ، ولكن يجب ألا تذكر إطلاقاً أن هذه العبارات منقولة من نصوص البردى ، بل يكفي أن تقول إنها وردت في مخطوط قديم^(١) .

* * *

والرسائل التي بعثها جراف من مصر عام ١٨٨٢ تم عن قلقه البالغ بسبب أحداث الثورة العربية ، وما يمكن أن تسبب من تعطل التجارة بعد أن تقدم العمل في البردى بسرعة مذهلة ونجاح باهر . لكنه استطاع مع ذلك ، أن ينظم العمل بفضل رجاله من الأعراب الذين كانوا ييوسون خلال الديار ويحملون البضاعة إليه حيثما كان ، في حرص وأمان ، فنقرأ في رسالة منه إلى كاراباتشيك بتاريخ ١١/٤/١٨٨٢ :

« رجالي العرب Meine Araber قد تعلموا الآن جيداً ، ودُربوا على العمل تدريباً طيباً . وحتى في حالة اضطرارى إلى الغياب عن مصر ، فإنهم سوف يحفظون لي كل ما يعثرون عليه من البردى ، ومنذ ثمانية أيام وهم غائبون عن القاهرة في جولة لجمع البضاعة ، وأنتظر عودتهم بصبر نافذ ، وأطمع في أن يحضروا لي هذه المرة شيئاً رائعاً . . . » .

(١) يعلق الدكتور هونجر ناشر الرسائل على هذه الفقرة بقوله : « كل ما يتعلق بالبردى كان يتم في الخفاء بصورة أو بأخرى ، وقد حذر كاراباتشيك ، في خطابه رقم ١١ إلى تيودور جراف ، من الكلام في مصر عن وصول شيء من البردى إلى فيينا . »

ثم كتب من القاهرة بعد خمسة أيام :

« . . . وقد تسلمت خطابك اللطيف ، ويؤلمني حقاً أن الطرد الذي بعثته إليك — وفيه أقمشة أثرية وبردى و عملات ذهبية قديمة — لم يكن قد وصل إليك في فيينا ، حتى اليوم الخامس من أبريل . ولا بد أن رحلة الباخرة كانت سيئة لتأخر وصولها إلى تريستا . . . »

وأنت ترى أنني أسير في الطريق السليم ، وأرجو أن أوافيك قريباً بأشياء هامة مما نعثر عليه . وقد أحضر رجالى العرب تحفاً مصرية أثرية ستأخذ طريقها إلى فيينا ، ثم عادوا إلى الصعيد يستأنفون بحثمهم . وقد انتظم العمل بحيث يجد ما يعثرون عليه ، طريقه المأمون إلى ، ولو لم أكن موجوداً بمصر . . . »

وقد زرت القنصل العام بالإسكندرية « البارون كوزبيك » ولم تتح لى فرصة لقاؤه ، لكن البارونة استقبلتني بلطف زائد . وإذ كانت مهتمة بالسجاد القديم ، أهديت إليها نسخة من كتابك عنه .

وأرجو أن يصلنى يوم الخميس خطاب منك عن الأقمشة والبردى والنقود الأثرية التى بعثت بها إليك ، فأنت لا تتصور مقدار هفتى على وصولها ومعرفة رأيك فيها .

بالأمس كنت فى طنطا ، وعدت إلى القاهرة فى المساء . ونحن نعيش هنا فى وقت عصيب بسبب الأحداث السياسية . وقد اكتشفت مؤامرة على حياة "عربى باشا" البطل الأسطورى ، فى اليوم الحادى عشر من هذا الشهر . ولا يدرى أحد ما تأتى به الأيام القادمة ، وإن شاء الله سأسافر إلى الإسكندرية ومنها إلى تريستا حيث أرجو أن أكون عندك بفيينا فى آخر الشهر .

* * *

ووصل جراف إلى فيينا ، فلم يجد صديقه الدكتور كاراباتشيك هناك فبعث إليه رسالة بتاريخ ١٨٨٢/٥/٨ يقول فيها :

« صديق العزيز . . . جاءنى فى بريد اليوم من مصر نبأ سار : تم شراء صفقة جديدة من الأقمشة الأثرية ، قد تصل إلى فيينا فى الأسبوع القادم . وكتب لى تراننا

نائبي بالقاهرة أن من بينها قطعة طولها نصف متر ، وعرضها عشرون سنتيمتراً ، مطرزة بنقوش رائعة ، ويمكن أن تعد أجمل القطع التي اشتريت إلى الآن على الإطلاق . وسوف يسرنى أن تكون القطعة من الصناعة الساسانية حتى تُثري مجموعتنا . وقد يواتينا الحظ فنعثر على روائع أخرى رومانية وإغريقية قديمة ، فالذى لا شك فيه أن كثيراً منها مدفون في رمال مصر . . . »

وظل جراف في فيينا ، ينتظر الأنباء عن مجرى الأحداث في مصر وهو مطمئن إلى أن رجاله العرب هنا ، يواصلون البحث عن الكثر المدفون . وفي رسالة منه إلى كراباتشيك مرسله من فيينا بتاريخ ١٨٨٢/٩/٢٠ يقول :

« الصديق العزيز . . . يبدو أن الأمور في مصر تسمح لي لحسن الحظ باستئناف نشاطي هناك عن قريب . بعد غد يصل السيد ترنتي Trenti من تريستا إلى الإسكندرية والقاهرة . وأنا واثق تماماً ، من أن رجالى العرب قد جمعوا في الشهور الأخيرة كثيراً من التحف والبردى والمنسوجات الأثرية ، ولهذا فإننى أنتظر أن أتلقى تقريباً طروداً كبيرة من القاهرة . . . وإلى اللقاء » .

* * *

وتكشف الرسائل عن الثمن البخس الذى دفعته فيينا - الأرشيدوق راينر - في هذه الصفقة التى لا يعرف العصر لها مثيلاً ، كما تكشف عن الظروف التى تمت فيها والمساومات التى جرت بشأنها ، والمكاتبات التى تبودلت حولها ما بين القاهرة وفيينا وبرلين .

لقد كان جراف يطلب في مجموعة بردى الفيوم الأولى - وتبلغ عشرة آلاف بردية بست لغات ، ومعها مجموعة من الأقمشة الأثرية - ثمانين ألف جولدن فقط . والجولدن عملة هولندية تساوى الآن حوالى اثني عشر قرشاً مصرياً . ولا أعرف كم كانت تساوى في زمن الصفقة . على أى حال فهى تساوى الآن شلنين انجليزيين ، فيما أخبرنى مدير البنك الأهلى في فيينا ، أى أن الصفقة بيعت بخمسة آلاف جنيه إنجليزى تقريباً ، بالسعر الحاضر :

والرقم لا يعطى هنا دلالة كاملة ، إلا إذا رجعنا إلى سجلات وزارة المعارف المصرية حوالى ١٩٥٠ ، لعلها تكون قد احتفظت بالمكاتبات التى دارت بين الوزير

وبين سيدة أجنبية من هواة الآثار ، حول كتاب واحد من البردى المصرى كان في حوزتها وعرضته على وزارة المعارف وطلبت ثمناً له آلافاً من الجنيهات. وقد سمعت بقصة هذا الكتاب من الأستاذ الوزير «على أيوب» رحمه الله، ثم أخبرنى الأستاذ الدكتور طه حسين بعد ذلك أن الثمن الذى طلبته السيدة الأجنبية لكتاب البردى كان خمسين ألفاً من الجنيهات :

ونعلم كذلك من الرسائل المنشورة في كتاب «الدكتور هونجر» أنه حتى عام ١٨٨٣ لم يكن «الأرشيدوق راينر» ظهر على المسرح ولا عُرف له أى دور في القصة التى بدأت أحداثها تدور ما بين الفيوم والصعيد والقاهرة وقيينا ، من عام ١٨٨١ ، وإنما كان الدور كله للمستشرق «يوسف كاراباتشيك» وتاجر السجاجيد الشرقية «تيودور جراف» الذى جازف فدفع ما دفع من ثمن البضاعة وطال عليه المدى في انتظار استرداد هذا المال المعطل .

وكان الأمر - كما أشرت من قبل - يتم في الخفاء ، طبقاً لتعليمات كاراباتشيك . لكن «صفقة جراف» كانت من الضخامة بحيث لا يسهل أن تظل المدى طويل طي الكتمان فلا تذهب الظنون كل مذهب في الهيئة التى تتوارى خلف التاجر النمساوى . وشاعت شائعة في الأفق الدولى تقول إن «جراف» لا يهتم بجمع البردى لحسابه الخاص وإنما يعمل لحساب متحف قيينا .

والرسالة التالية - وقد بعث بها جراف إلى كاراباتشيك في ١٤/٨/١٨٨٣ - تسجل صدى ما شاع من أمر الصفقة في أكبر العواصم الأوربية حينذاك :

«الصديق العزيز . . .

«منذ فترة قصيرة تلقيت من أخى «الدكتور برنارد جراف» هذا المقال المنشور في صحيفة برلين اليومية بتاريخ ٣١ من مايو ، عن مجموعة البردى الكبيرة التى ظفرتُ بها . وحين قرأت فيه أننى جمعت هذا الكثر لحساب المتحف النمساوى وجدت من مصلحتى أن أكتب إلى الصحيفة ، مطالباً بتصحيح هذا الخطأ ومؤكداً أننى جمعت هذا البردى لنفسى لا للمتحف النمساوى . واليوم صباحاً تلقيت من برلين خطاباً من السيد «جورج بورش Georg Bursch» هذا نصه :

« برلين في ١٢/٦/١٨٨٣ : »

السيد المحترم ، تلقيت من إدارة صحيفة برلين اليومية التي أشرف بالعمل فيها ، خطابك الكريم المؤرخ في الثالث من هذا الشهر ، وكم كانت دهشتي ودهشة زملائي كبيرة ، حين علمنا منه أنه لم يتم أى إجراء في قيينا لشراء المجموعة الهامة التي جمعتها من البردى ، لحساب الدولة ! وأرجو أن تأذن لي في أن أتقدم إليك بنصيحة ، وهي أن تتجه إلى الإدارة العامة للمتاحف في برلين ، وتعرض عليها شراء البردى ، وأنا واثق تماماً أن عرضك سوف يقبل على الفور ، وسأكون مديناً لك بالشكر إذا أبلغتني قرارك في هذا الأمر .

« وواضح من هذا العرض يا صديقي أنهم في برلين مهتمون بمجموعتي من البردى بحماس شديد . على أنني لن أعرض هذه البردى للبيع خارج النمسا إلا إذا طال الوقت ولم يتم شيء هنا ، وعندئذ أرسله إلى برلين وأطلب ثمانين ألف جولدن ثمناً له . وهو ثمن ليس كبيراً بحال ما ، إذا قدرنا ضخامة المجموعة وما فيها من قطع قيمة . ولك تحيات قلبية من صديقك ، جراف . »

ولم تمض سوى أيام معدودات ، حتى أتبع جراف خطابه هذا بالخطاب التالي المؤرخ في ٢٦ / ٦ / ١٨٨٣ :

« صديقي العزيز . . . »

السيد "فون أيتلبرجر Eitelberger" — مستشار البلاط بالنمسا ، أرسل اليوم إلى ، يرجو أن أتوجه لمقابله في المتحف هذا الصباح ، وقد أخبرني أن سمو الأرشيدوق راينر ، قد كتب إليه لكي يتولى عنه المفاوضة في شراء مجموعتي من البردى والنسيج ، وعلمت أن السيد فون أيتلبرجر والأستاذ فون هارتل Von Hartel كتبوا إليك في هذا الموضوع .

وسئلتُ أن أقابل "الأستاذ ليسللي" بعد ظهر اليوم وأبلغه قراري النهائي عن الموقف والتمن الذي أطلبه على وجه التحديد ، وقد أبديت للسيد المستشار الامبراطوري استعدادي لقبول ثلاثين ألف جولدن لمجموعة البردى ، وعشرين ألف جولدن لمجموعة الأقمشة ، أي خمسين ألفاً للمجموعتين . . . »

على هذا النحو تمت الصفقة الكبرى ، ودفع « الأرشيدوق راينر » ثمنها .
ومن ذلك الحين بدأ حرصه على تميمها ورعايتها ومتابعة دراسة العلماء لنصوصها ،
فنقرأ في خطاب له أرسله من قصره الصيفي إلى كاراباتشيك في ١٦/٦/١٨٨٤ :

« الأستاذ العزيز :

الأيام القليلة التي أمضيتها في فيينا لم تنح لي فرصة زيارتك في مكان عملك .
وأكتب الآن لأعبر لك عن جميل شكري على النشرات الأخيرة والصور التي
تفضلت فأرسلتها إليّ . . . ويسعدني حقاً ، العثور على برديات جديدة باللغة
الإغريقية أو الرومانية أو العربية ، مما يقدم دليلاً جديداً على اهتمامنا بهذا العمل
الجليل . وأتمنى أن يتم بنجاح فك أوراق كتاب البردي الذي حدثتني عنه كي نتاح
لي قراءته كله ، وما أشك في أنه سوف يعطينا مادة تاريخية هامة .

وإذ أكرر لك شكري ، أتمنى لعملك الجليل أحسن النتائج .

وسأبقى المخلص ، راينر » .

* * *

وأتابع قراءة الرسائل فأجد بينها رسالة من « جراف » في القاهرة بتاريخ ١٩/
١ / ١٨٨٥ تنبئ بأن الفيضان الكبير للبردي في مصر قد انحسر ، وترك لدى
التجار بقايا ، يود جراف أن يعود بها إلى وطنه . لكنهم يغالون في ثمنها فيطلبون
ثلاثين فرنكاً لثلاث أو أربع أوان مليئة بلفائف البردي ! ويستطرد جراف قائلاً :
« وقد رفضت لوحات أثرية من الخزف عليها كتابات إغريقية وقبطية وديّة طيقيه
وهير وغليفية ، عرضت في السوق بسعر سبعين فرنكاً ، وهي الآن في طريقها إلى
متحف اللوفر بباريس . والواقع أن الضيق المالي الذي تعاناه حكومتنا قد أصبح
معروفاً هنا . ونفوذنا يتقهقر بسرعة إلى الوراء . . . وقد سمعت هنا قصصاً مثيرة ،
ومع ذلك يقولون ؛ الشرق لنا ! » .

كما أجد بعدها رسالة كتبها « جراف » وهو في فيينا إلى صديقه المستشرق

بتاريخ ١٥ / ١٢ / ٨٥ . يقول فيها :

« الصديق العزيز :

« علمت مما كتبه نائبي بالقاهرة في رسالة إلىّ ، أن الاهتمام بالبردى نشط من جديد ، وقد انتشرت هناك شائعة تقول إنه تكونت في برلين جمعية برياسة "هاينريش شليمان Heinrich Schliemann" رصدت نصف مليون مارك لاجتلاب البردى من مصر » .

* * *

وتتابع الرسائل ، لنعلم منها أن الحكومة المصرية ظلت في غفلة عن الأمر إلى أن ذاعت أخبار سوق البردى وانتشرت قصص مثيرة عن المساومات التي كانت تجرى فيها والهدايا التي كانت تُحمل منها إلى الأباطرة والملوك ، فبدأ للحكومة أن تفرض رقابة على السوق لكي تحتكر البضاعة وتستأثر بالثمن المجلوب .

ويبدو أن إعلان عزم الحكومة المصرية على التدخل في الموقف ، قد أزعج الذين حسبوا أن الرقابة الحكومية جد لا هزل فيه ، فتوقف نشاطهم فترة خوفاً من العقاب الصارم ، كما يظهر ذلك بوضوح في رسالة بعث بها جراف إلى كاراباتشيك في منتصف ديسمبر عام ١٨٨٥ وقال فيها :

« . . . وكتب لي نائبي في القاهرة ، أنه قد بلغه أن الأستاذ "أدولف أرمان" من علماء المصريات المشهورين - يبحث الآن في كل مكان عن البردى ويسأل عنه كل من يلتقى ، لكن دون أن ينجح إلى الآن في الوصول إلى شيء منه . وليس هذا بمستغرب ، فالبردى أولاً : لا يعوم بالقاهرة في الهواء ! وثانياً : معروف أن جواسيس الحكومة المصرية منتشرون في كل مكان يحاولون أن يعرفوا أين عُثر أو يعثر على البردى ، والذي عُثر عليه . ولهذا فإن مصادر البردى لا بد أن تتوقف وتصمت لفترة طويلة . وأعتقد أنه بمجرد نشر ما أعددت من مجموعتنا من البردى - وفيها وثائق بالغة الأهمية عن غزو المسلمين لمصر - سيكون من الخطر المجازفة بالسؤال عن البردى في مصر ، فما بالك بمحاولة تصديرها إلى الخارج ؟

« وعلى أي الأحوال ، لنا أن نعد أنفسنا سعداء لأننا استطعنا لحسن الحظ أن ننقل إلى فيينا في الوقت المناسب هذه الكمية الضخمة من وثائق البردى الموجودة لدى سمو الأرشيدوق راينر .

« وتتجمع الآن في مصر سُحُبُ العاصفة آتيةً هذه المرة من السودان . متى نتمتع بالهدوء في هذا البلد كى تسير الأمور التجارية على الأقل سيراً حسناً ؟ » .

* * *

لكن فترة التوقف في سوق البردى ، لم تطل إلا ريثما كشفت الأيام عن عمق الرقابة الحكومية وغفلة الحراس الإداريين الذين نام منهم من نام التماساً للراحة وإيثاراً للعافية ، وآخرون منهم أغمضوا عيونهم وقد أعشاها بريق المال ، فصدّق فيهم المثل : حاميا حراميا .

ودب النشاط من جديد في السوق بعد أن أدرك المتعاملون فيها عبث الرقابة الحكومية ، واطمأنوا إلى أنهم يستطيعون استئناف نشاطهم في البحث عن الكنز في غفلة من الخفراء والحراس أو بالتواطؤ معهم ! وعادت لفائف البردى تتدفق من مصر إلى أوروبا ، وحقق التاجر المحنك « تيودور جراف » جولات جديدة ظافرة في الميدان ، فقرأ في رسالة منه إلى الدكتور كاراباتشك بتاريخ ١١/٢/١٨٨٧ خبراً عن مجموعة جديدة من البردى حملها بنفسه من مصر إلى فيينا ، وطلب من صديقه المستشرق عرضها على الأرشيدوق راينر ، ثم إفادته عن رأى سموه فيهما ، ونخم خطابه قائلاً :

« . . . ولن يسعدنى في هذه الظروف التجارية السيئة أن تم الصفقة فقط ، بل إنى أرحب كل الترحيب بإتمامها في أقرب فرصة . ذلك لأنى أود أن أسافر خلال هذا الشهر إلى القاهرة ، وأرى من الضرورى تأجيل سفرى إلى أن ينجلي الموقف بالنسبة إلى هذه المجموعة الجديدة من البردى والرق . والواقع أنه لو خامرنى أدنى ريب فى تردد سمو الأرشيدوق راينر فى شرائها ، لكننى اضطررت إلى عرضها للبيع فى مكان آخر ، لأنى دفعت فيها من رأسمالى ، ما لا أستطيع الاستغناء عنه طويلاً فى مثل هذه الظروف . . . » .

وقد تم بالفعل شراء البضاعة الجديدة لحساب الأرشيدوق راينر الذى ضمها إلى مجموعته ، وكتب إلى كاراباتشك بتاريخ ١٣ / ٤ / ١٨٨٧ ما ترجمته :

الأستاذ العزيز :

« . . . ويسعدنى كذلك أن أسمع عما فى هذه المجموعة الجديدة وأن أعلم أن

العمل فيها يتقدم بنجاح بفضل جهتك وجهود السادة زملائك المشتغلين بها . وأنا مقدر بطبيعة الحال أن العبء تضاعف بالزيادة المطردة في مجموعتنا التي ترجع الوثائق الأخيرة منها إلى عام ٨١٨ م ، ولا شك أن ترقيم هذه المجموعة وتصنيفها ، يحتاج وحده إلى جهد شاق . . . وأحييك إلى اللقاء .
رايتر « .

ونستطيع أن نتصور مدى عقم الرقابة وغفلة الحراس ، إذا علمنا أن « جراف » لم يتردد في القيام برحلة معلّنة إلى مناطق الكشف عن البردى في الصعيد . دون خوف أو حذر ، بعد عامين اثنين من فرض الرقابة التي حسبها في أول الأمر ، تجعل مجرد السؤال في مصر عن البردى مجازفة خطيرة ! وهو يبدو في عام ١٨٨٧ أقوى تفاقلاً وأرحب أملاً في العثور على بقايا ما سماه « الكنز الراقد تحت أرض مصر » ومن الفيوم ، بعث إلى كاراباتشك بهذه الرسالة المؤرخة في ١٩/١١/١٨٨٧ :

الصديق العزيز :

« اليوم أبعث إليك تحية قلبية من الفيوم ، مكان العثور على بردينا *Unsere Papyri* فلقد قمت أمس بزيارة مناطق الكشف عنها في كوم فارس ، تل من أطلال « أرسنوحى » العاصمة القديمة للفيوم وتبعد عنها بحوالى ربع ساعة . ولست أشك في أنه إذا أتيح لنا البحث الجاد في الأكوام والأطلال الخربة ، فسوف نعثر على بقايا ممتازة من آثار العصور القديمة . فهنا يرقد الكنز تحت الأرض ، ولا يحتاج إلا إلى المال فقط لنستخرجه ! والبردى في السوق قليل ، لكن الحظ حالفنى فاستطعت الظفر بكمية منه كادت تفلت من أيدينا ، إذ من المنتظر أن يأتي الأستاذ « أولريش فيلكن Ulrich Wilken » قريباً لزيارة هذه المنطقة ، فلولا سبقى إلى هذه الصفقة الجديدة من البرديات ، لكانت فيما أعتقد ستأخذ طريقها إلى برلين » .

ثم تلّتها بعد يومين رسالة منه إلى « كاراباتشك » جاء فيها :

« . . . من الفيوم أرسلت إليك أمس الأول تحية ألحقتها اليوم ببضعة أسطر : ذكر لى رجال العرب ، أنه قد عُثر في خرائب منزل قديم بإخميم على نحو مائتى لفاة مقفولة من البردى ، وتدل الكتابة المقروءة بوضوح على الأجزاء الظاهرة منها ،

على أنها ترجع إلى عصور قديمة . وأبادر فأرسل إليك اليوم ، فى طرد بالبريد المسجل ، أربع لفائف منها لكى تفحصها وتحكم عليها . وهى تبدو صعبة الفتح ولا يدرى أحد شيئاً عن النصوص المدونة فيها ، لكن من السهل عليك فتحها وقراءة نصوصها . فإذا بدت لك ذات قيمة فأنى أستطيع أن أوافيك بالكثير منها ، من نفس الحجم والصنف تقريباً . والعرب هنا تحت أمرى إلى أن أتلقى برقية منك . . . » .

واستمر نشاط جراف وأمثاله رغم الرقابة المفروضة ، والحكومة عاجزة عن الاهتداء إلى سر الكنز . وكان يحدث أحياناً أن يسمع موظفوها المكلفون بالرقابة عن نبأ العثور على بردى فى جهة ما ، ثم ما يكادون يصلون إلى هذا المكان حتى يكون البردى قد أفلت منهم كما حدث فى مجموعة بردى « كوم اشقاو » التى عثر عليها الفلاحون عام ١٩٠١ ، ثم لما وصل جنود شرطة طما إلى القرية اختفت كلها فلم تعثر الشرطة على شىء منها . وبعد مضى أسابيع ظهر لدى تاجر بالقاهرة لفائف إغريقية جيدة من البردى الختفية ، كما اشترى الأستاذ موريتس لفائف عربية منها . وبعد زمن ، أعلن عن وصول كميات من « بردى كوم إشقاو » إلى برلين وهايدلبرج ولندن وشتراسبورج وموسكو ، فضلاً عن اللفائف الرائعة التى اشتراها الأستاذ « ن . ايشر ، وتاشند » من تجار القاهرة .

• • •

وأظننى بهذا القدر الذى رويته من قصة البردى قد بينت مدى اهتمام الدول الغربية بهذه الذخائر من تراثنا ، لما تضىء من التاريخ الحضارى للإنسانية بوجه عام ، ومن حيث هى تراث مشترك لا يصح أن تتخلى دولة متحضرة عن مسئوليتها فى الكشف به عن معالم التطور البشرى ما بين ماض وحاضر ، فضلاً عما يكشف لهم هذا التراث من سر وجودنا وطبيعة مزاجنا وملامح عقليتنا .

ومن قبلهم سعت رسل الغرب إلى أقطار الشرق باحثين عن كنوز مخطوطاته ، وجاء نابليون معه بجنود من العلماء لدراسة أحوال الشعب المصرى والكشف عن

أسرار تاريخه القديم ، فكيف بنا والراث لنا والتاريخ تاريخنا ؟ ألسنا في حاجة إلى أن نكشف عن حقيقة ذاتنا ونهتدى إلى معالم وجودنا منذ شهدنا التاريخ نقود البشرية على درب الحضارة والتمدن ؟

إن حاضرتنا لا يمكن أن يستغنى عن تجارب ماضينا ، وعن الفحص الدقيق لأرضه التي يقوم عليها البناء الجديد .

* * *

(٤)

فحص المجموعة

استطعت بفضل المعونة الصادقة التي قدمتها « الدكتورة لوينشتاين Loebenstein »
مديرة المجموعة ، والأستاذ « فاكلمان Fackelmann » خبير البردى في ألبرتينا ، أن
أخذ فكرة كافية عن ذخائر «مجموعة راينر» .

وتقدر المجموعة بنحو مائة ألف بردية تم فك أكثرها ، ولا يزال هناك نحو
عشرة آلاف لفافة لم تفك بعد . ويتابع الأستاذ فاكلمان فكها بتطريتها وإلصاقها
على الورق المقوى . وقد قام كاراباتشيك ومعاونوه بفحص مقدار من هذه الذخائر
نشر منها في دليل كاراباتشيك ١٤٠٠ نص مع شروح وتراجم وتعليقات ، وما نشره
جروهمان ، موجود في كتبه عن البردى . وبقي نحو خمسين ألف بردية تم فتحها
وصيانتها ، لكن دون أن تُفحص أو تُقرأ .

ويقف عمل الخبير « فاكلمان Fackelmann » الآن فيما يختص بالبردى العربي
عند تطرية اللفائف وصيانتها دون متابعة الفحص والتنسيق ، لجهله باللغة العربية ،
وقد قال لي فيما قال : « ا ، فحص نصوص البردى العربية في مجموعة ألبرتينا وقف
عند كاراباتشيك - زروهمان من بعده ، بحيث يمكن القول إن دراسة البردى العربية
قد ماتت - أو بصعب عبارته ؛ Ist schon tot - على حين استمرت دراسة البردى
اليونانية واللاتينية حية ، لوجود علماء متخصصين يواصلون فحصها واستقراء
نصوصها . »

وما تم فكها وفهرسته ، وُضع منسقاً في خزائن ذات أرفف من الصلب ،
أعدت خصيصاً لهذه الغاية . وهي مصنوعة في غرف موصدة منيعة لا يباح الدخول
فيها إلا بإذن خاص ، وفي صحبة مديرة المجموعة . وجدران الغرفة عازلة للصوت
مكيفة الهواء والرطوبة ، مجهزة بما يقيها من الحشرات والنار والتقلبات الجوية .
وعلى كل رف بطاقة تحمل الرمز اللغوي لمجموعته ، وأرقامها في الفهرس العام :

— رمز الرق العربي A.P.G. ، ورمز البردى العربي A.B. ، والورق العربي A.C.—
ولم يتح لى بطبيعة الحال أن أشتغل بغير النصوص العربية وإن كنت بدافع
الاطلاع قد ألقيت نظرة سريعة على نماذج من البردى فى اللغات المبروغليفية
والقبطية واللاتينية حيث لفتنى دقة خطها وروعة نسقها .

والجزء الذى اشتغلت عليه من البردى العربى ، يبلغ تسعمائة وخمسين بردية ،
أرقامها فى فهرست المجموعة من ٥٥٠ إلى ١٤٠٠ وكلها عن مصر . وأقدمها مؤرخة
عام ٢٢ هجرية من عهد الخليفة عمر بن الخطاب . وأحدثها مؤرخة عام ٧٨٠ هـ .
من عهد السلطان المنصور محمد ، فى عصر المماليك . وهذا بيان لها :

عصر الخلفاء الراشدين :

الخليفة عمر بن الخطاب من رقم ٥٥٠ : ٥٦٢
الخليفة عثمان بن عفان ٥٦٣ :- ٥٦٧

مصر فى العصر الأموى :

من عهد معاوية ويزيد ٥٦٨ : ٥٨١
» عبد الملك بن مروان ٥٨٢ : ٥٩١
من عهد الوليد بن عبد الملك ٥٩٢ : ٥٩٥
» عمر بن عبد العزيز ٥٩٦
» هشام بن عبد الملك ٥٩٧ : ٦٠٧
» مروان بن محمد ٦٠٨

مصر فى العصر العباسى الأول : (١٣٢ : ٢٥٥ هـ)

من عهد أبى العباس السفاح ٦٠٩
» أبى جعفر المنصور (١ / ٩٠ مراسم)
» محمد المهدي ٦١٠ : ٦١٦
» هارون الرشيد ٦١٧ : ٦٦٥
» محمد الأمين ٦٦٦ : ٦٨٢

| | | |
|-------|-----|--------------------|
| ٧٢٣ : | ٦٨٣ | من عهد المأمون |
| ٧٤٩ : | ٧٢٤ | » المعتصم بالله |
| ٧٥٥ : | ٧٥٠ | » الواثق بالله |
| ٧٧٥ : | ٧٥٦ | » المتوكل على الله |
| | ٧٧٦ | » المنتصر بالله |
| ٧٨٥ : | ٧٧٧ | » المستعين بالله |
| ٧٩٣ : | ٧٨٦ | » المعتز بالله |

مصر في الدولة الطولونية : (٢٥٤ : ٢٩٢ هـ)

| | | |
|-------|-----|----------------------|
| ٨٣٤ : | ٧٩٤ | من عهد أحمد بن طولون |
| ٨٥٣ : | ٨٣٥ | » خمارويه |
| ٨٥٧ : | ٨٥٤ | » جيش بن خمارويه |
| ٨٨٣ : | ٨٥٨ | » هارون بن خمارويه |

الدولة العباسية الثانية : (٢٩٥ : ٣٣٣ هـ)

| | | |
|-------|-----|------------------------------|
| ٨٨٥ : | ٨٨٤ | من عهد الخليفة المكتفي بالله |
| ٩٠٧ : | ٨٨٦ | » الخليفة المقتدر بالله |
| ٩١٥ : | ٩١٤ | » الخليفة الراضي بالله |
| | ٩١٦ | » المتقي بالله |

مصر في العصر الإخشيدى : (٣٣٣ : ٣٥٧ هـ)

| | | |
|--------|------|----------------------------|
| ٩٦٨ : | ٩٤٩ | من عهد محمد بن طغج الإخشيد |
| ١٠١٦ : | ٩٧١ | » أنوجور بن محمد |
| ١٠٥٨ : | ١٠١٧ | » على بن طغج |
| ١٠٦١ : | ١٠٥٩ | » كافور الإخشيدى |

مصر في العصر الفاطمي : (٣٥٨ : ٥٦٧ هـ)

| | | |
|--------|------|------------------------|
| ١٠٧٣ : | ١٠٦٤ | من عهد المعز لدين الله |
|--------|------|------------------------|

| | |
|-------------|--------------------------|
| ١٠٨٩ : ١٠٧٤ | من عهد العزيز بالله |
| ١١٤٦ : ١٠٩٠ | » الحاكم بأمر الله |
| ١١٨٢ : ١١٤٧ | » الظاهر لإعزاز دين الله |
| ١٢٨٥ : ١١٨٣ | » المستنصر بالله |
| ١٢٨٢ : ١٢٧١ | » الأمر بأحكام الله |
| ١٢٨٦ : ١٢٧٣ | » الظاهر بأمر الله |
| ١٢٨٧ | » العاضد بالله |

مصر في العصر الأيوبي : (٥٦٧ : ٦٥٢ هـ)

| | |
|-------------|-------------------------|
| ١٢٩٠ | من عهد صلاح الدين |
| ١٢٩١ | » العزيز عثمان |
| ١٢٩٧ : ١٢٩٢ | من عهد العادل سيف الدين |
| ١٣٠٢ : ١٢٩٨ | » الكامل محمد |
| ١٣١٠ : ١٣٠٣ | » الصالح نجم الدين أيوب |
| ١٣١٥ : ١٣١١ | » الأشرف موسى |

دولة المماليك : (٦٥٧ : ٧٨٣ هـ)

| | |
|-------------|------------------------------|
| ١٣١٧ : ١٣١٦ | من عهد السلطان سيف الدين قطز |
| ١٣٢٥ : ١٣١٨ | » ركن الدين بيبرس |
| ١٣٣٩ : ١٣٢٦ | » قلاوون |
| | » ناصر الدين محمد |
| ١٣٤١ : ١٣٤٠ | (في ولايته الأولى) |
| ١٣٤٨ : ١٣٤٢ | (في ولايته الثانية) |
| ١٣٦٤ : ١٣٤٩ | (في ولايته الثالثة) |
| ١٣٦٥ | » المنصور أبي بكر |
| ١٣٧١ : ١٣٦٦ | » الملك الصالح إسماعيل |
| ١٣٧٢ | » الكامل شعبان |

| | |
|-------------|-------------------|
| ١٣٧٣ : ١٣٨٣ | من عهد الناصر حسن |
| ١٣٩٠ : ١٣٨٤ | » المنصور محمد |
| ١٣٩٩ : ١٣٩١ | » الأشرف شعبان |
| ١٤٠٠ | » المنصور على |

وقد شغلتُ بمراجعة نصوص هذه الوثائق على ما نشره كاراباتشيك عنها ، كما شغلت بقراءة ما كتبه من تعليقات على أكثرها . وقدرت المشقة البالغة التي تحملها وهو يقرأ هذه الوثائق بخطها القديم ، في أوراق قديمة لم تسلم من عبث الليل . مما أجهدني والعربية لغتي ونصوص التراث تخصصي . على أني لاحظت أنه في التعليق عليها قد جاوز في أغلب الأحيان . ما تعطيه نصوص البرديات من دلالات . مضيفاً إليها من مطالعته وآرائه ما لا يحتمل النص .

القيمة التاريخية لهذه النصوص

لم يعد مجهولاً أن أجيالاً متعاقبة من أبناء مصر قرأت تاريخها الوطني على غير حقيقته . وتراث البردى في جملته ، يعطى وثائق مادية لهذا التاريخ الذي نحتاج إلى استجلاء حقيقته في مرحلة اكتشاف الذات .

وفيه مفاتيح لكثير مما غاب من ذلك التاريخ ، وإضاءة لدور الشعب في صنع حياته . وهو الدور الذي أغفله أكثر مؤرخينا ، ممن داروا في فلك السياسة وشدت عيونهم إليها يرصدون حركات السلاطين والحكام ، ومن حولهم من حاشية وجند ووزراء وشعراء وندماء . فجاء تاريخنا السياسي حلقات متسلسلة من أسماء أسر وحكام تتابعوا على العروش . وسرداً مفصلاً لأعمالهم ومعاركهم الحربية والمذهبية ؛ كما جاء تاريخنا الأدبي في جملته ديواناً جامعاً لما نظم المرتزقة من شعر المدح وما قال المأجورون في تمجيد أصحاب السلطان ، وتبرير أفعالهم أمام الجماهير .

ولقد عكف المستشرق « الدكتور يوسف كاراباتشيك » على دراسة بضعة آلاف من البرديات العربية في " مجموعة راينر " من بداية الفتح العربي لمصر ، إلى عصر المماليك . وقدم في أول كتاب نشره عن بردينا وثائق تعطي مادة تاريخية لحياة هذا الشعب . القومية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية :

رسائل أفراد من عامة الشعب عن حاجاتهم وشكاواهم وأحوالهم . وتذاكر طبية من عصر مبكر تحدد أصنافاً من الدواء وطرق العلاج مثل البردية رقم ٧٤٣ من عهد المعتصم العباسي والبردية رقم ٨١١ من القرن الثالث الهجري .

وطلبات سلع وبضائع من الأهالي والتجار ، حملها البريد من أشمون إلى الفيوم ومن دمياط إلى الصعيد ، في طلب شراء أصناف من الأطعمة والملابس والحلى والعمود ، تتطلبها السوق أو يحتاج إليها بيت أو تُجهز بها عروس ، أذكر منها على سبيل المثال : البردية رقم ٥٦٣ في شعبان سنة ٢٦ هـ من عهد الخليفة عثمان بن عفان ، والبردية رقم ٥٧٤ من عهد معاوية ، وفيها طلب لثلاثة معاطف ، وعدد من مناديل

الرأس والأخفة الصوفية مع تحديد ألوانها ، ومقدار من عصير البلح ؛ والبردية رقم ٦٠٤ من عهد هشام بن عبد الملك ، وفيها بيان لميزانية بيت أحد الأغنياء ؛ والمقرر لنفقات اصطبل خيوله . والبردية رقم ٧١٠ بتاريخ ٢٠٨ هـ من عهد المأمون ، وفيها مبادلة أصناف من السلع بين التجارين « فيب وقسطنطين » من قبط مصر .

والبردية رقم ٧٧١ من عهد المتوكل . ببضائع تجارية من الملابس والأقمشة مع بيان أسعارها ، ورقم ٨٤١ من العصر الطولوني . وفيها بيان أصناف مطاوعة لحمام كحل قيمته ١/٢ دينار ، وعطر بربع دينار ، وزعفران لصبغ الشعر بدرهم وثمن درهم ، وحناء للشعر والأيدى بِشُمْنِ درهم ، وزيت طبي بدرهم .

والبردية رقم ١٠٧٢ من العصر الفاطمي . وفيها توكيل بشراء كتب وورق وأطعمة وأقداح شراب وغطاء مائدة ؛ مع تحديد أسعار كل منها . والبردية رقم ١٢٩٠ مؤرخة في عام ٤٨٧ هـ من العصر الفاطمي أيضاً ، بطلب شراء : منديل أحمر للرأس ، وقميص داخلي من قماش ناعم جداً أحمر اللون ، ومعطف من صنف ممتاز .

وحجج لوفاء النيل في سنوات بعينها ، كالبردية رقم ٦١٨ من عصر الرشيد . وأوامر ديوانية بإحصاء لعدد السكان بمصر وأعمارهم وأماكن إقامتهم ، كالبردية رقم ٥٩٩ عن الإحصاء الذي تم في عهد هشام بن عبد الملك واستغرق ستة أشهر .

وعقود زواج وإيجار ، وصكوك معاملات رسمية وأهلية ، أذكر منها مثلاً البردية رقم ٥٦٨ وفيها وثيقة صداق من عهد معاوية ، ورقم ٦٠٩ بصكوك ضرائب من أول العصر العباسي ، ورقم ٦١٣ من عهد المهدي ، وفيها نص وصية رجل قبل موته مع بيان بتوزيع تركته ، والبردية رقم ٦١٧ وتعد أقدم وثيقة عتق عُرُفت حتى اليوم ، وهي لعتق مملوك من الأتراك اسمه « نتجيش » كانت تملكه سيدة تدعى بنت يوسف . والبردية رقم ٦٤٦ من عهد الرشيد وفيها صكوك لإيصالات من أرملة اسمها « سمية » للأوصياء على أولادها الثلاثة القُصَّر ، باستلام نفقاتهم السنوية من مال وطعام .

وشكاوى من أزمات القحط والغلاء ، منها ما يرجع إلى العصر الأموي (بردية رقم ٥٩٦) ومنشورات ثورية ضد جور الجُهَبَاة وعسف الولاة ، أذكر منها البردية

رقم ٧٨٨ من آخر العصر العباسي ، وفيها ثورة ضد الولاى التركى ، ورفض سيادته على أبناء مصر وعمدً ولايته غيرَ شرعية لأنه تركى كافر .

وكل هذا مما يحتاج إليه تاريخنا تصحيحاً لخطأ أو إكمالاً لنقص أو كشفاً عن تزيف وتزوير . إلى جانب ما تقدمه هذه الآثار المادية إلى التاريخ الحضارى العام من معالم الحياة فى عصور بعينها وإلى المشتغلين منا بتوثيق مخطوطات تراثنا ، من إضاءة لتطور المواد المستعملة فى الكتابة وأنواع المداد ونسق الخط . وأشكال الزخارف والرسوم ، وطرق اللف والطي والتجليد .

ويقول « الأستاذ كاراباتشيك » فى مقدمته للدليل البردى العربى . بعد إشارة إلى ما كانت مصر تعاني تحت حكم الرومان من عسف واضطهاد ، ما ترجمته :

« كلما اقترب بردينا Unsere Papyri الإغريقى من العصر البيزنطى ، تغير المعروف لنا عن تاريخ مصر ، واتضح لنا إلى أى مدى كان هذا البلد العريق الذى جمع من أقدم العصور بين أخصب الأراضى وأزهى العمران والتفوق الحضارى والتجارى ، به شعب يتحمل المصاعب بصبر . كما ترىنا صكوك البردى كيف شلَّ الفقرُ الطبقةَ الشعبية ، وكيف خلق الضغط الضربى أزمات عميقة .

« وهى تفسر لنا كيف وقع أكثر بلد على الأرض بركةً ، كالثمرة الناضجة بين أيدي الفاتحين العرب ، ويعد نجاح الفتح فى تلك الفترة القصيرة من أغرب الأحداث فى التاريخ العام . وقد جاءنا البردى العربى بمعلومات قيمة فريدة عن مصر ، ونقل إلينا صورة للحياة فيها بطريقة دقيقة ، نسر معها كأننا نعيش فيها .

« ومن نصوص البردى لذلك العهد ، يظهر لنا أن فكرة غزو العرب لمصر ، كانت تحمل طابعاً آخر غير ما نعلم ، وأن الكتابة الحديثة لتاريخ تلك الفترة وقعت فى أخطاء جسيمة عديدة .

« كم يظهر لنا فاتحو مصر - بفحص هذه الوثائق - فى صورة جيد مغايرة للصورة المعروفة ! فهم لم يكونوا مجرد غزاة جياع ، ولا كانوا جماعة مغامرين من البدو راكبي الجمال ، وإنما كانوا محاربين منظمين أقوياء يحملون أسلحة من الحديد والرصاص ويقاتلون ببسالة فى سبيل عقيدة اعتنقوها بإخلاص . وقد تحررت مصر بهم من الضغط البيزنطى ورحبت بأبناء الصحراء الذين نادوا فيها ببحرية

العقيدة كما تشهد بذلك وثائق من البردى ، إحداهما مؤرخة في من ٨ يناير ٦٤٢ م .
وتشهد نصوص أخرى من عصر الفتح بأن العرب الفاتحين حموا دماء المصريين
وأملأهم واحترموا شخصية البلد العريقة النابعة من حضارة قديمة . وفي كتابة
"الأسقف يوحنا" - المعاصر لتاريخ الفتح - اعترافاً بأن "عمرو بن العاص"
لم يتزع شيئاً من أملاك الكنيسة .

* * *

وقد أشرت إلى أن أقدمَ الوثائق العربية مما فحص «كاراباتشك» من "مجموعة
راينز" يرجع إلى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وبتصوير البردية رقم (٥٥٨)
قرأتُ عليها بوضوح أنها كتبت في شهر جمادى الأولى من سنة اثنتين وعشرين
هجرية . أما أحدث البرديات ، فن عصر المماليك حيث تحمل البردية رقم ١٤٠٠
تاريخ سنة ٧٨٠ هـ من عهد السلطان الملك المنصور على .

وليس من المتصور أن نكون قد عرفنا تاريخنا وأحطنا بأسراره علماً دون مطالعة
لما كشف الأجانب الغرباء من وثائق مادية لها مثل تلك الأهمية ، إلى جانب
ما لم يفحصه أحد من عشرات الألوف غيرها ، فضلاً عن لفائف البردى التي
لا تزال مطوية لم تُفكّ وعددها في "مجموعة راينز" وحدها نحو عشرة آلاف .

وفيما يختص بجدوى فحص هذه الوثائق على الدراسات الأدبية واللغوية ،
كان من الضروري أن أطلع على نماذج من الكتابة العربية في العصر الإسلامي
المبكر ، لأهتدى بها في توثيق مخطوطات تراثنا ، من حيث نسق الخط ورسمه
ومداده ، فضلاً عما تضم "مجموعة راينز" من نصوص ذات أهمية في معرفة نماذج
من لغة الكتابة وأساليبها . وقد عُنيت بوجه خاص بما في المجموعة من برديات
فيها نصوص قرآنية ، مثل البردية رقم ٧٢٨ وفيها الآيات من ٦٧ إلى ٩٨ من
سورة مريم . والبردية رقم ٧٢٩ وفيها آيات من سورة يونس ، ويبدو أنها كانت
تُستعمل تيممة .

وعُنيت كذلك بالرسائل ذات الطابع الأدبي ، مثل البردية رقم ٦١٥ من القرن
الثاني الهجري - عهد الخليفة المهدي العباسي - وفيها مظلمة يتم اغتصب أحد الأعاجم
دينياً ضئيلاً كان عليه لوالد الشاكي ، فهو يتضرع إلى الوالي أن يستدعي

المغتصب ويرغمه على الإقرار بالحق ، ثم يدعو الله أن يطيل عمر الوالى ويباركه .
والبردية رقم ٦٣٩ من عهد الرشيد ، وهى من النثر الفنى العاطفى ، كتبها مريض
أنهكه الحب نفسياً وجسدياً .

والبردية رقم ٨٤٢ وفيها نصّ كتاب عتق « بإرادة الله عتقناك ، مما لا يجعل لى
أو لأى إنسان آخر أن يتعرض لحربتك بأى طريق » مع التاريخ وتوقيع الشهود .
والوثيقة رقم ١٠٦٤ من العصر الفاطمى - عهد المعز لدين الله - وفيها منظومة
لأحد الإمامية فى هجاء معارضيهم السياسيين والدينيين ، واتهام لهم بالانحراف
عن الإسلام .

والواقع أنى كما أشرت فى مقدمة هذا التقرير ، قصدت من رحلتى إلى التماس
مثل هذه النصوص والوثائق التى قدرت جدواها على ما أشغل به من توثيق المخطوطات
وتحقيق النصوص . لكن قصة البردى المثيرة ، ما لبثت أن دفعتنى إلى متابعتها
ومراجعة كل ما يتسع له الوقت من سجلاتها ورسائلها والكتب المؤلفة فيها . فاتضح لى
آخر الأمر أن موضوع هذه الذخائر لا يقتصر على أهميتها للمشتغلين بتحقيق
الآراث العربى والدراسات اللغوية والأدبية فقط ، وإنما يتسع ويمتد ، فيتصل
كذلك اتصالاً مباشراً بتاريخنا القومى ، وبالتاريخ الحضارى للإنسانية بوجه عام .

توصيات ومقترحات

هل لى بعد هذا كله ، أن أتقدم ببعض المقترحات والتوصيات ؟

١ - تتبنى جامعة عين شمس بالاشتراك مع دار الكتب قضية هذه الوثائق المجهولة لنا من تاريخنا ، وتُدخلها فى برنامج نشاطها العلمى ، بحيث تخطط لها فى مشروعاتها وترصد لها جزءاً من رصيد ميزانيتها للبحوث والمهمات العلمية .

وأرى أن هذه القضية تتصل فى التخطيط للمستقبل بموضوع إنشاء معهد عال للتراث وسوف أتقدم إلى الجامعة بمذكرة تفصيلية خاصة ، عن مشروع هذا المعهد الذى يحتاج إليه وجودنا ، قومياً وعلمياً .

٢ - توصى الجامعة بأن يدخل فى اتفاقية التعاون الثقافى بين مصر والنمسا تصوير الوثائق التى تم فكها وفهرستها من مجموعة بردى فيينا ، وإيفاد لجنة من السيد مدير دار الكتب وأساتذة الجامعة المتخصصين فى التاريخ المصرى والإسلامى والتراث العربى ومعهم أمين مكتبة الجامعة ، لاستكمال فحص هذه الوثائق واختيار ما يجب تصويره منها . مع التوصية كذلك بترجمة ما فى "ألبرتينا" من دراسات بردية ، عن الألمانية .

٣ - تسعى الجامعة لدى إدارة العلاقات الثقافية الخارجية ، لتكليف ممثلها الثقافيين فى روسيا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا وتشيكوسلوفاكيا وإنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ، بكتابة تقرير عام عن كل مجموعات البردى المشار إليها فى هذا التقرير .

وأود هنا أن أسجل شكرى الخالص وتقديرى الصادق لما لقيت من رعاية «السيد حسن التهامى» سفير الجمهورية العربية المتحدة فى النمسا ، ومساعدة المكتب الثقافى العربى بفيينا .

كما أذكر بحميل التقدير « الدكتور لوبنشتاين Dr. Loebenstein » مديرة مجموعة بردى فيينا ، والسيد « أنطون فاكلمان Fackelmann, A. » خبير البردى في ألبرتينا ، لما قدما لي من معاونة صادقة ، وما يسرا لي من فرصة العمل المثمر .

• • •

ولقد تقدمت بهذه التوصيات ، مع التقرير ، إلى الجامعة ودار الكتب بالقاهرة ، إثر عودتي من فيينا ، صيف عام ١٩٦٤ . ونشرت في الأهرام في الصيف نفسه ، فصلاً من قصة البردى ، ومشاهد من السباق على الكنز . فكانت الاستجابة من وزارة الثقافة التي بذلت لهذه القضية عناية جادة ، في حدود طاقتها : فلقد بادر المجلس الأعلى لدار الكتب ، إثر عرض هذا التقرير عليه ، في عام ١٩٦٥ ، إلى إيفاد مبعوث من الدار إلى فيينا ، على منحة ثقافية ، خصصت للبردى في ألبرتينا .

ثم في عام ١٩٦٧ صدر قرار من السيد الدكتور وزير الثقافة ، بإنشاء مركز للتراث في دار الكتب بالقاهرة ، تأتي الإشارة إليه في الحديث عن معهد التراث . وحين استقر الرأي على عقد اتفاقية ثقافية بين مصر والنمسا ، وُزع مشروع الاتفاقية قبل إقرار صيغته النهائية ، على الهيئات الثقافية والجامعات ؛ فأتى لي بذلك أن أقترح النص في لائحة الاتفاقية ، على بذل جهد مشترك من مصر والنمسا ، لمجموعة بردى ألبرتينا .

وصدرت اللائحة في مستهل عام ١٩٦٩ ، وفيها هذا النص المقترح .

• • •

وتفضل السيد وزير الثقافة « الدكتور ثروت عكاشة » فأوفدني إلى « فيينا » على هذه الاتفاقية الثقافية ، حيث تابعت في صيف هذا العام (١٩٦٩) ما جدَّ على ألبرتينا بعد زيارتي السابقة لها سنة ١٩٦٤ :

في سنة ١٩٦٦ ، أنجزت ألبرتينا العمل في ١٣١ من لفائف البردى تمت تطريتها وفكها وصيانتها ، منها خمس باللغتين اليونانية واللاتينية ، ٢٤ بالعربية ، ٧ بالعربية ، ١٢ بالقبطية ، والباقي من لفائف الرق والورق .

فى سنة ١٩٦٧ : تم العمل فى ١٢٠ بردية ، نظرية وفكاً وصيانة ، منها ٤٣ باليونانية ، ٧ بالعربية ، ٧٠ بالقبطية . ومعها ٧١ لفافة من الورق العربى و ٤٠ لفافة من الرق القبطى .

فى سنة ١٩٦٨ : تم الفك والإعداد والصيانة ، لنحو ٥٥٠ لفافة ، منها ١٨٧ بردية قبطية يونانية ، وخمس لفائف من الرق ، و ١٨ لفافة من الورق العربى .

• • •

ولم تكن مفاجأة لى أن أعلم أن سوق البردى ما تزال تعرض صفقات من كنزنا المصرى . وقد دخلت النمسا السوق مشترية ، فظفرت بصفقتين منها أضافتهما لى مجموعة ألبرتينا . وحال ضيق الوقت المحدد لرحلتى ، دون متابعة قصة هذه الصفقات الجديدة ؛ وفحص الوثائق العربية منها ، حيث لا تزال لفائفها هناك لم يبدأ العمل بعد فى إعدادها .

وفحن ، ما تزال بمعزل عما يجرى فى سوق البردى : تراث أسلافنا ومادة تاريخنا !